الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

813
Fac/LT 02 0f8

تخصص: حضارة عربية إسلامية

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر موسومة بـــ:

أسس التّحضر في فكر مالك بن نبي

إعداد الطالبين:

❖ سلاف خثيرون

❖ محمد الأمين عطية

إشراف الأستاذ:

❖ أ.د. عبد الرحمن خروش

السنة الجامعية: 2011م-2012م

TAS_958_FL/01

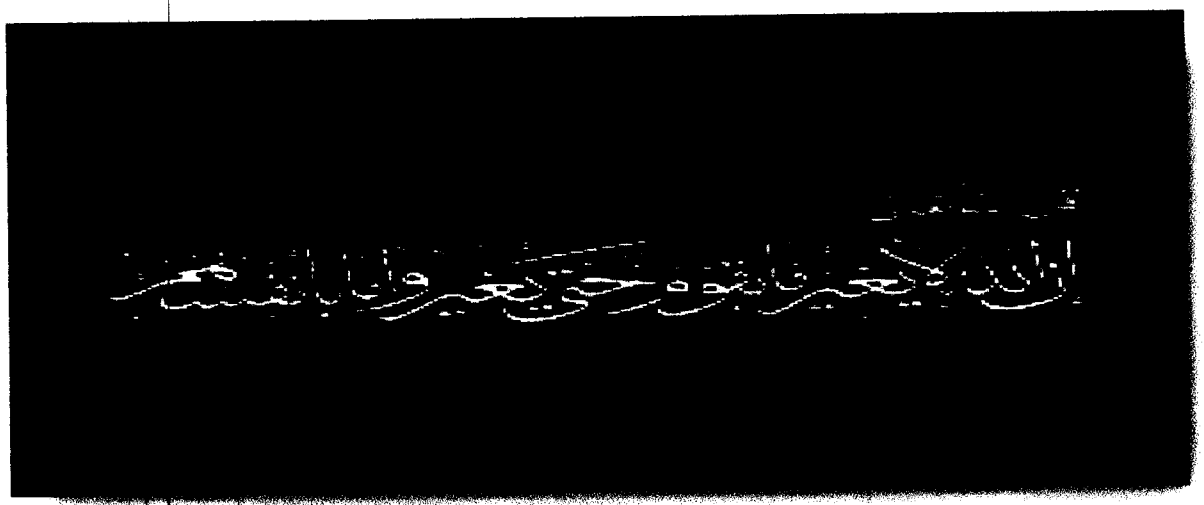

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما
كتاب الله
و
سنتي
السنة النبويه
صححه الألباني

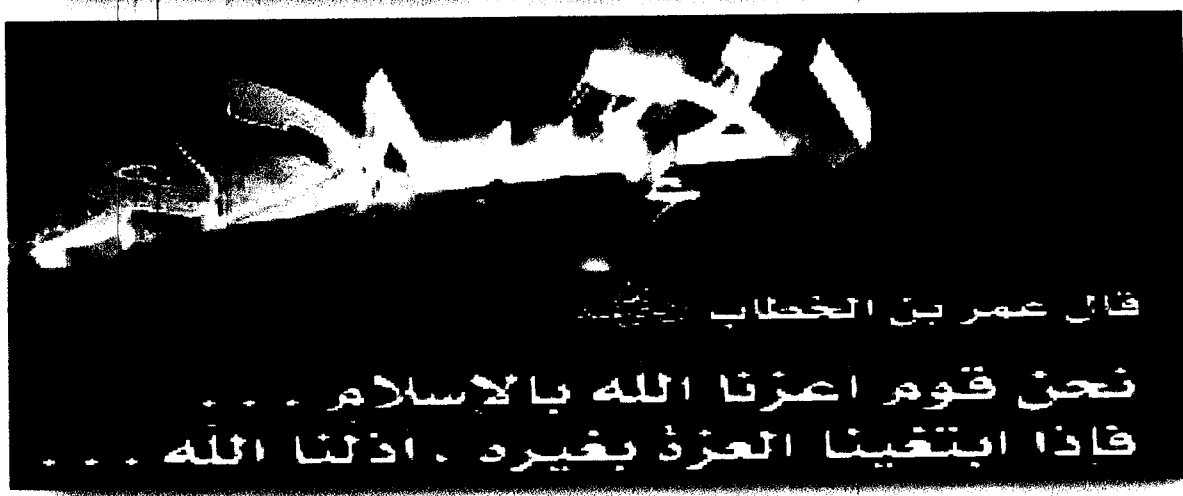
الحسد
قال عمر بن الخطاب
نحن قوم اعزنا الله بالإسلام . . .
فإذا ابتغينا العزة بغيره . اذلنا الله . . .

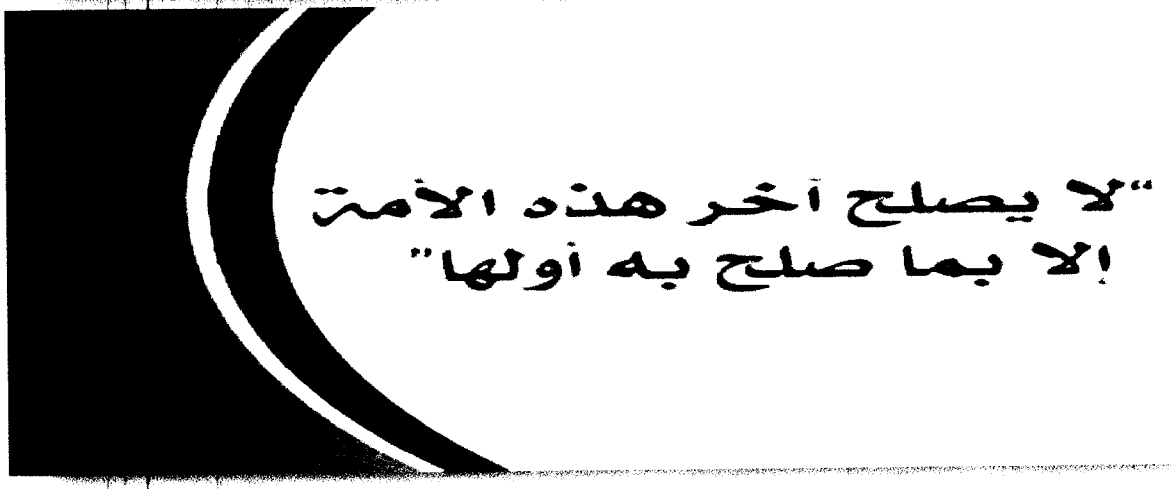
"لا يصلح آخر هذه الأمة
إلا بما صلح به أولها"

شكر وعرفان

قال عزّوجل : (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)

لم يكن هذا العمل ليتم لولا مشيئة الله عزّوجل فله الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه،فقد أفاننا من فضله ورزقنا القوة والعزيمة والصبر على إتمام هذا العمل وأمدنا يد العون وذلل لنا الصعوبات وأنار لنا الظلمات، وفتح لنا أبواب الخيرات، فله الفضل وله النعمة وله الثناء الحسن.

ثم نتقدم بجزيل شكرنا وامتنانا أولا للأستاذ المحترم الطيب القلب أطال الله عمره وأبقاه لغيرنا من طلبة العلم أستاذنا "عبد الرحمن غربوش" الذي لم نخط خطوة في بحثنا إلا كان مسلكنا وموجهنا فيها.

ونشكر الأستاذ المناقش على كرمه وقبوله مناقشة هذا البحث.

كمانشكر كل من ساهم في هذا العمل من قريب أو من بعيد ماديا أو معنويا من أساتذتنا وطلبة وموجهين، جزاهم الله عنا خير الجزاء.

شكرا للجميع.

الإهداء

-إلى الوالدين الكريمين

-إلى الإخوة الأعزاء...

- إلى كل الأصدقاء...

-إلى كل من أحبّ العلم والعلماء الرّبانيين...

- إلى كل من سعى للتمرس بالأمّة الإسلامية وفق المنهج الصحيح ...

أهدي هذا العمل

مُحبكم طه

الإهداء

-إلى الوالدين العزيزين: أبي حمدا وأمي

-إلى الإخوة والأخوات...

-إلى كل الأصدقاء...

-إلى كل التلاميذ الذين أحترمهم...

-أهدي هذا العمل

مُعتز محمد الأمين

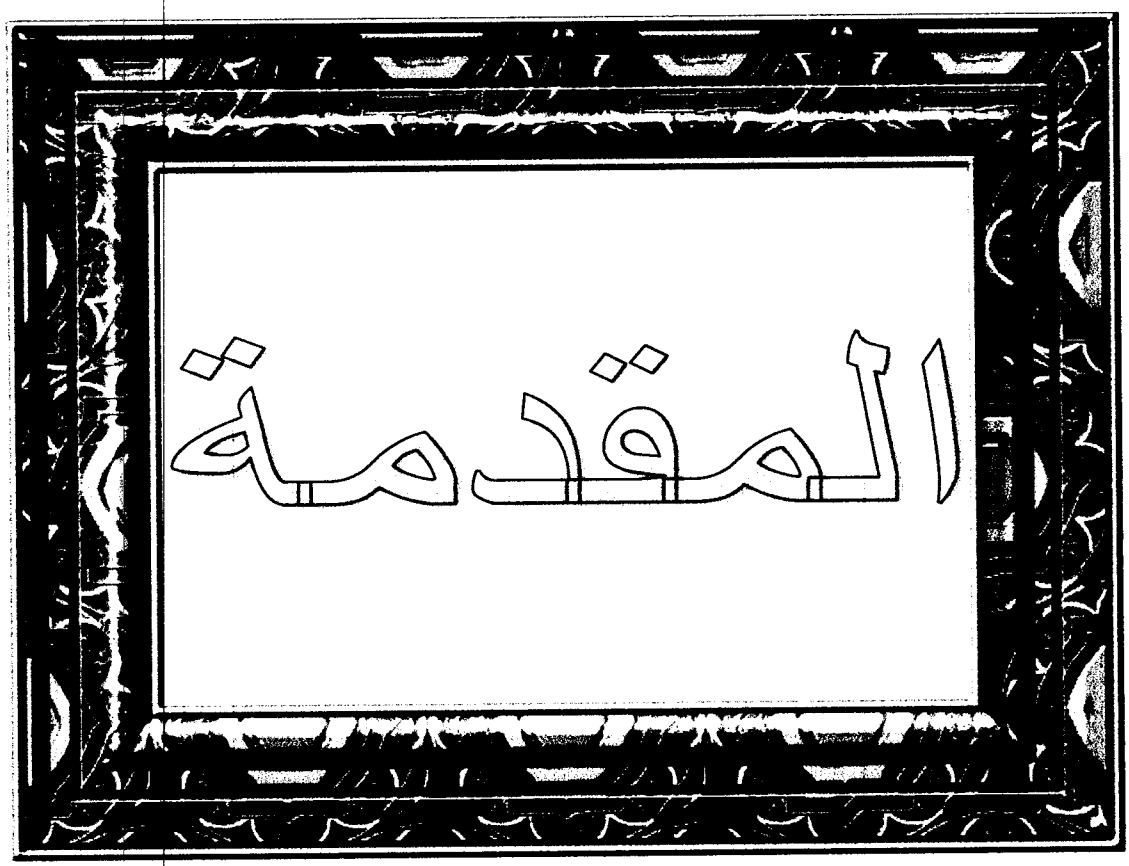
المقدمة

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين،أمّا بعد:

فإنّ الحضارة تُعتبر قمّةَ الرُّقي والإبداع والتّقدم في هذه الحياة وطريق السعادة الحقيقية للبشرية، فهي مسيرة النور المتلألئ في تاريخها وهي ملك عام للإنسانية كلّها،تُعطي لمن يريدها وينهل منها، ويرغب في رفع المستوى الحضاري لبلده من دون وضع حدود على انتقالها وانتشارها.

إنّ المتأمل في التاريخ الحقيقي للأمة العربية الإسلامية في أوج عطائها يدرك أنّه تاريخ حضارة بكل المقاييس وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ ساميةٍ، ولكن لَمّا تَقَدّمت السنين بالأمّة العربية، تعرّضت هذه الأخيرة إلى صدمة الحضارة وصدمة الاستعمار في الوقت نفسه، فكان على الفكر العربي أن يلتمس طريق الخلاص من التخلف والتقهقر والانحطاط، وتحقيق النهضة الحضارية، فأبدع مفكرو هذه الأمّة في دراسة المسألة الحضارية، وابتكروا حلولا لمشكلة التحضر وأوجدوا نظريات وأفكار تبحث في أسس التحضر بخلفيات متباينة ،محاولين إبراز حقيقة الحضارة وشروطها بصفة عامة، ومشكلة التحضر في العالم الإسلامي بصفة خاصة.

ولَمّا كان "**مالك بن نبي**" من المفكرين المسلمين الذين ذاع صيتهم وبَرز جُهدهم في محاولة إبراز طريق التحضر بالتّطرق لحقيقة الحضارة من خلال فلسفته ورؤيته الإسلامية لطريق النهضة الحضارية انطلاقا من واقعه وبيئته الاجتماعية، ونظرا لأهمية فهم موضوع الحضارة كونِ تحقيقها

هو النهضة ذاتها، ولأنّ موضوع الحضارة موضوع أساسي وأكيد وعميق، ويُعتبر منبعًا وإطارًا عامًا لكلّ الدراسات الإستراتيجية،وخُطط التنمية وبدون مراعاة مسألة الحضارة،تُصاب كل هذه الخطط والدراسات بالانتكاس والنُكوص والخيبة والفشل الذريع نحو تحقيق النهضة، ولأنّ حياتنا المعاصرة بحاجة شديدة إلى أبحاث حضارية عملية ينبغي إشباعها بحثا ودراسة وتفصيلا لتستنير بها الأمّة الإسلامية في طريقها الطويل،ولأنّ موضوع التحضر من المواضيع الهامّة التي لها مساس بحياة الإنسان،جاء موضوعنا هذا الموسوم بـــ:"**أُسس التّحضر في فكر مالك بن نبي**" بهدف الإطلالة والتعرّف على جانب من المبادئ والمفاهيم التي جعلها "مالك بن نبي" من أسس التحضر، وقراءتها بعقل عصرنا، بُغية الاستفادة منها في النهوض بأُمّتنا وقصد تغذية روح وعقل الفرد المسلم بأفكار حياتية جديدة، وطُروحات مُعاصرة تُنمّي الجانب الحضاري عنده وتُوسّع آفاق المعرفة لديه، وكذلك بهدف توضيح معنى التغيير، وعلى أي مستوى يكون وذلك لِما تشهده الساحة العربية اليوم من ثورات دامية باسم التغيير.

وعليه فإذا كانت الرؤية الحضارية في فكر "مالك بن نبي" نتيجة دراسة عميقة في أسباب تخلف العالم الإسلامي وتحليله لشخصية الإنسان المسلم، فلا بُدّ أنّه اقترح البدائل والحلول نتيجة معرفته الوثيقة بأبناء جنسه، فما هي الأسس والشروط المناسبة التي رآها المفكر سببا في النُّهوض الحضاري؟ وما هو دور كل أساس في البناء الحضاري؟

وإذا كانت الرؤية الحضارية عنده غير محصورة على جنس مُعيّن حيث إنّه اعتبر تحقيق هذه الأسس هو التحضر، فإلى أيّ مدى ساهم بأفكاره في بناء صرح الحضارة؟ وكيف يكون علاج المرض الذي أُصيبت به الحضارة الإنسانية في نظره؟

وانطلاقا من هذه التساؤلات، وبعد وضوح معالم الإشكال رسمنا خطّة مُكوّنة من مقدمة ومدخل وثلاثة فصول ثم خاتمة، ففي المقدمة يتجلّى موضوع البحث وأهميته والهدف منه وطرح الإشكاليات ثم عرض الخطة والمنهج المُتبع فيها، مع ذكر مصدر مُهم اعتمدنا عليه كثيرا في إنجاز البحث، وقد تطرّقنا في المدخل إلى إبراز ماهية الحضارة من خلال تعريفها لغة واصطلاحا وذكر بعض الآراء المتباينة والمتقاربة حول مفهومها لننتقل إلى توضيح بعض الفروق بينها وبين المدنية والثقافة.

بينما استفتحنا الفصل الأول بتسليط الضوء على شخصية هذا المفكر الكبير من خلال عرض سيرته وآثاره ومكانته وسط المثقفين مع التعرّض للأسباب التي كانت وراء نبوغه، أمّا الفصل الثاني والمُعنون ب "أسس التحضر في فكر مالك بن نبي" والذي هو لُبّ موضوعنا فقد تطرّقنا فيه إلى أسس المعادلة الحضارية التي وضعها "مالك بن نبي"، فحاولنا قراءتها بعقل عصرنا ونظرة "ابن نبي" لها مع التركيز على قيمة كل أساس ودوره في البناء الحضاري، لنُعرّج في الفصل الثالث والأخير على بعض المصطلحات في فكر "مالك بن نبي" والتي رأيناها ذات علاقة مباشرة بقضيّة التّحضر، وأخيرا خَلُصنا إلى خاتمة كانت عُصارة نُزهة شيّقة في جانب من الأفكار النّيرة لهذا المفكر الكبير – رحمه الله-.

ويبدو أنّ المنهج المُتبع في إنجاز هذا البحث هو المنهج الاستقرائي الاستنتاجي الذي اعتمدنا فيه على التفسير والتحليل واستنباط الحلول للتوصّل إلى نتائج منطقية وحلول مقبولة من خلال رؤية "مالك بن نبي".

وقد اعتمدنا في إنجاز هذا البحث على مصدر هام يُعتَبر حجر الزاوية ضمن مؤلفات "مالك بن نبي" ألا وهو كتاب "شروط النهضة".

وفي آخر المَطاف يُسعدنا أن نتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى أستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور "عبد الرحمن خربوش" الذي تفضّل بالإشراف على البحث وتكرّم على صاحبيه بصائب الرأي وخالص التوجيه وحُسن المتابعة.

وفي الأخير نأمل أن يكون لهذا البحث شيء من الإسهام في وضع لَبِنَة في بناء حاضر الأمّة ومستقبلها على نهج الوفاء لقيمها ومقوماتها وأصالتها ولو من منطلق ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ والله هو المنعم، وهو المعين وهو الهادي إلى الصراط المستقيم، فنِعم المولى ونعم النّصير.

المبحث الأول: التعريف اللغوي للحضارة

المبحث الثاني: التعريف الاصطلاحي للحضارة

المبحث الثالث: آراء متباينة ومتقاربة حول الحضارة

المبحث الرابع: بين الحضارة والمدنية والثقافة

توطئة:

لابدّ لنا قبل الخوض في تفاصيل موضوعنا،أن نحدّد ولو بشكل موجز مفهوم الحضارة وما الذي تعنيه هذه الكلمة لغة واصطلاحا لكي نكون على بيّنة من هذا المفهوم وعلى تصور عام له؛لأنّ دلالة الحضارة في حدّ ذاتها عرفت عبر التاريخ التطور والتغيير واختلف معناها من مدرسة إلى مدرسة فكرية أخرى، لذلك نجد أنفسنا أمام مجموعة من التعاريف المختلفة للحضارة، وقد عرف معناها تطورا بنائيا عبر العصور التاريخية ولهذا سنقتصر على مجموعة من التعاريف لهذا المفهوم لإلقاء الضوء عليه فحسب.

المبحث الأول: التعريف اللغوي للحضارة:

إذا راجعنا كلمة الحضارة في معاجم اللغة لوجدناها تعني الإقامة في المدينة والسكن في الأمصار وبناء الديار والعمران والتحضر في السلوك وكلّ أسباب المدنية، ففي "لسان العرب" نجد أنّ كلمة الحضارة مشتقة من: «الحضور نقيض المغيب والغيبة، حضر يحضر حضورا وحضارة... والحضر: خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي... والحضارة: الإقامة في الحضر،... والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سمّيت بذلك لأنّ أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون بها قرار».[1]

وفي المعجم "الوسيط": «... والحِضَارة الإقامة في الحضر»، قال "**القطامي**":

[1]- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1410هـ - 1990م، ج4، ص:196-197.

فَمَنْ تَكُنْ الحَضَارَة أَعْجَبَتْهُ ✱ فأيُّ رِجَالِ بَادِيةٍ تَرَانَا

وهي: ضدّ البداوة وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر [1]

المبحث الثاني: التعريف الاصطلاحي للحضارة:

لقد اختلف العلماء والمفكرون والباحثون في تحديد مفهوم الحضارة،ولم يكن البعد التاريخي وحده هو السبب في اختلافهم، بل كان لتباين تصوراتهم الخاصة أو عقائدهم أو خلفياتهم الثقافية أو حتى جنسهم أو بيئتهم الأثر الواضح في تحديد مفهوم للحضارة، وقد عرض الباحث "**حسن جبر**" في كتابه "أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها" لأربع اتجاهات في تحديد معنى الحضارة:

❖ **الاتجاه الأول:** يشير فيه الباحث إلى أنّ أصحابه اهتموا بثمرة الحضارة التي هي غاية النشاط البشري،[2] ومنهم الباحث "**حسين مؤنس**" الذي قال في تعريف الحضارة: « الحضارة- في مفهومها العام- هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية».[3]

❖ **الاتجاه الثاني:** ويشير فيه الباحث إلى أنّ اصحاب هذا الاتجاه اهتموا وركزوا على الجانب الروحي للحضارة في تعريفاتهم، فمنهم "**ريسلر**" الذي قال وهو بصدد تقديم كتابه "الحضارة العربية": «إنّ أمنيتنا المخلصة أشدّ الإخلاص تقوم على أنّ هذا الكتاب يمكن أن يتيح لمن

[1] – مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط ، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1982، ص:181.

[2] – حسن جبر: أسس الحضارة الإسلامية ومعالمها، دار الكتاب الحديث، الجزائر، ط2، 1999، ص:09.

[3] – حسين مؤنس: الحضارة، عالم المعرفة، العدد الأول، 1398هـ - 1978م، الكويت، ص:13.

يتصفحونه أن يدركوا على أفضل وجه الروح الإسلامية وكيف صيغت هذه الروح على مرّ العصور»[1] فهدف الكاتب من كتابه ابرز الروح الإسلامية. ومنهم "**كولن ولسون**" الذي قال في كتابه "سقوط الحضارة": « إذا كانت الحضارة مريضة روحيا فإنّ الفرد يعاني من المرض نفسه...».[2]

❖ كما ذكر الباحث قول "**أبو الأعلى المودودي**" الذي يقول: « إنّ الناس يظنون حضارة أمة من الأمم عبارة عن علومها وآدابها وفنونها الجميلة و...، ولكن الحقيقة أنّه ليست كلّ هذه الأمور بالحضارة وإنّما هي أوراق شجرة الحضارة وثمارها إذا صلح هذا فلا يجوز أن نحدّد وزن حضارة وقدرها وقيمتها على أساس مالها من هذه الصور الظاهرة وإنّما علينا أن نتوصل إلى روحها ونتحسس أصولها».[3]

❖ **الاتجاه الثالث:** يرى الباحث في هذا الاتجاه أنّ النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية لها آثار كبيرة في اجتماع الناس وتنظيم حياتهم وتقدم أنماط هذه الحياة، فهو يرى أنّ: « بعض الباحثين يرى الحضارة من خلال هذه النظم»،[4] ومن هؤلاء "**عبد العزيز الأهل**" الذي كتب: « إنّ المعنى القريب الذي ترمي إليه كلمة حضارة هو غاية النفع والسعادة الناتجين سريعا عن إتباع قوم من الأقوام أدق نظام وأرقاه من نظم الحياة».[5]

---

[1]- رسلر جاك: الحضارة العربية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1993، ص:15.

[2]- كولن ولسون: سقوط الحضارة العربية، تر: أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، 1982، ص:06.

[3]- أبو الأعلى المودودي: الحضارة الإسلامية- أسسها ومبادؤها، تر: محمد عاصم الحداد، تقديم: محمد عبد الحكيم خيال، دار الخلافة، د.ط، ص:06.

[4]- حسن حبر: أسس الحضارة الإسلامية ومعالمها، ص:10.

[5]- عبد العزيز الأهل: الحضارة الإسلامية، ص:11.

وسار في هذا الاتجاه "**ديورانت**" فقال: « إنّ الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي وهي تتألف من الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخُلقية وتطوير العلوم والفنون وهي تولد وتنمو بعيدا عن الاضطراب والقلق وتزدهر في جوّ من الأمن والاستقرار».[1]

❖ **الاتجاه الرابع**: يقول الباحث: « إنّ أصحاب هذا الاتجاه يهتمون بالتدافع أو التفاعل أو القدرة على قبول التحدّيات والتغلب عليها،فهم يرون الحضارة في ظهورها وتقدمها وفي كيفية مواجهة الإنسان للتحدّيات وأسلوب تعامله مع المشكلات التي تواجهه وتعترض تقدمه أو يفكر فيها لإشباع حاجاته».[2] فـ"**توينبي**" يعرّفها بأنّها:« ثمرة تحدّي الإنسان للبيئة ونوع استجابته لها».[3] و"**مالك بن نبي**" سار في هذا الاتجاه وصاغ مفهوم الحضارة في إطار هذا الاتجاه، فهو يعتبر الحضارات حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية.[4]

فمن خلال هذه الاتجاهات الأربعة نستنتج أنّ الاختلاف، وإن بدا كبيرا فإنّنا نلاحظ أنّه ظلّ مرتبطا بالتجربة الإنسانية.

---

[1]–وول ديورانت: قصة الحضارة، تر: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1967م، ج1، م3، ص:14.

[2]– حسن حبر: أسس الحضارة الإسلامية ومعالمها، ص:11.

[3]– حسين مؤنس: الحضارة، ص:88.

[4]– مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، ط5، 1986م، ص:25.

المبحث الثالث:آراء متباينة ومتقاربة حول الحضارة:

كما سبق وأشرنا إلى أنّ هذه الاتجاهات المختلفة للمفكرين والباحثين وخلفياتهم المتباينة، قد حالت دون تحديد مفهوم جامع ومانع لمصطلح الحضارة، ونحن في هذا العنصر حاولنا إيراد مجموعة من الآراء والتعريفات لعلماء ومفكرين قدماء ومحدَثين علنا نخرج بمفهوم يعطينا نظرة شاملة حول هذا المصطلح.

❖ رأي "ابن خلدون":

عندما عالج "عبد الرحمن بن خلدون" مراحل تطور المجتمع البشري خصّص المرحلة الثالثة منها لحالة الحضارة حيث قال فيها: « والحضارة إنّما هي تفنّن في الترف، وإحكام الصنائع المستعملة في وجهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني، والفرش والأبنية وسائر عوائد المترل وأحواله، فلكلّ واحد منهما صنائع في استجادته والتأنق فيما تخصّص به، ويعلو بعضها بعضا، وتتكاثر باختلاف ما تترع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلوّن به من العوائد وفيها ينسى الأفراد عهد البداوة والخشونة ويفقدون حلاوة الغزو والعصبية، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تنكبوه ومن النعيم وغدارة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحياة والمدافعة، ويلبسون على الناس في الشارة والزيّ وركوب الخيل».[1]

[1]- ابن خلدون: المقدمة، تح: علي عبد الرحمن وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة،1960، د.ط، ج3، ص:871.

نلاحظ أنّ "ابن خلدون" في تعريفه للحضارة يقتصر على الجوانب المادية منها، ولا يتطرق إلى الجوانب المعنوية والفكرية، مثل الآداب والفنون والمعارف المختلفة التي يفرد لها فصلا خاصا في مقدمته وهو الفصل السادس في: "العلوم واكتسابها وتعلمها".

❖ رأي "**ألبرت شفيتزر**":

يرى أنّ الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء وأنّ محاولة التميز بين الحضارة وبين المدنية بوصفها مجرد التقدم المادي.. يهدف إلى جعل العالم يألف فكرة نوع من الحضارة لا أخلاقي إلى جانب نوع أخلاقي منها.[1]

فالحضارة عنده: « هي جماع كل تقدم حققه الناس وكل فرد في كلّ مجالات العمل، ومن وجهة نظر من حيث كون هذا التقدم يساعد الكمال الروحي للأفراد... فهذا الأخير هو التقدم كلّ التقدم».[2]

من خلال هذا الرأي نظنّ أنّ الحضارة عند "شفيتزر" ذات بعد أخلاقي روحي.

❖ رأي "**شبنجلر**":

يرى شبنجلر هو الأخر جوهر الحضارة في الجانب الروحي فيقول: « إنّ حيوية الإنسان الحضاري تتجه في مجراها إلى الباطن، بينما تتجه حيوية الإنسان المدني إلى الخارج».[3]

---

[1]- ألبرت شفيتزر: فلسفة الحضارة، تر: عبد الرحمن بدوي، مطبعة مصر، القاهرة،د.ط ، ص:35.

[2]- المرجع نفسه، ص:113.

[3]- أزوالد شبنجلر: تدهور الحضارة الغربية، مكتبة الحياة، بيروت، 1964م، ج1، ص:87.

- **تعريفات أخرى:**

❖ **تيولر:** « هي ذلك الكيان المعقد الذي يضمّ المعرفة والمعتقدات والفنون والآداب والقوانين والعادات وجميع القدرات والتقاليد التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في المجتمع».[1]

❖ **رالف لينتون:** « الحضارة هي مجموعة من الاستجابات التي تعلمها الأفراد وأصبحت من مميزات المجتمع».[2]

❖ **جورج باستيد:** « الحضارة هي التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة تجاوبا مع إرادة التحرّر في الإنسان».[3]

❖ **يوسف حوراني:** « الحضارة عي عقائد دينية وازدهار اقتصادي وإنجازات إنشائية وفنية وأنظمة تشريعية وتضامن اجتماعي».[4]

❖ **محمد محمد حسين:** «الحضارة كل ما ينشئه الإنسان في كلّ ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه عقلا وخلقا ومادة وروحا ودنيا ودينا».[5]

---

[1]- قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، 1977، ط3، ص:34.

[2]- رالف لينتون: شجرة الحضارة، تر: ظفر الدين خان، دار البحوث العلمية، الكويت، ط2، 1973، ج1، ص:65.

[3]- جورج باستيد: المدينة سرابها ويقينها، تر: عادل العوا، جامعة دمشق، 1957، ص:12.

[4]- أبو غنيم: مراكز الحضارة الإسلامية، ص:14.

[5]- محمد، محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية، ص:04.

❖ **حامد غنيم:** « الحضارة هي مجموع القيم المعنوية والإنجازات المادية التي تشكل في مجموعها واقع أمة وصلت في مضمار التقدم والرقي وسيطرة الإنسان النابعة من إبداعه الخلاّق على درجة عالية بالقياس إلى مستوى العصر الذي تعيش فيه هذه الأمة».[1]

❖ **أحمد شلبي:** « الحضارة هي الإنجازات التي تتحقق للبشرية أو حققتها البشرية من خُلق وسلوك ومعارف».[2]

❖ **محمد مبارك:** يعرّفها بأنّها: « مجموع المعارف العلمية والتشاريع والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية، وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعبا أم أكثر».[3]

إنّ المتأمل في هذه الآراء والتعريف سواء العربية أو الغربية يدرك مدى تأثير الخلفيات والتخصّصات والاتجاهات في النظرة الفكرية والتوجّه العقلي.

وعلى هذا، وممّا تقدم يبقى تعريف الحضارة تعريفا دقيقا جامعا مانعا من المهام الصعبة المنال، ولذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى تبني تعريف تقريبي وهو التعريف الذي قدمه الباحث "**الربيعي بن سلامة**" في كتابه: "الحضارة العربية الإسلامية" حين قال: « حضارة أيّ مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم هي عبارة عن مجموع مظاهر حياتها الاجتماعية ممثلة في تراثها المادي والمعنوي».[4]

---

[1]- أبو غنيم: مراكز الحضارة الإسلامية، ص:26.

[2]- أحمد شلبي: الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط6، 1989م، ج1، ص:20.

[3]- محمود الخالدي: الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية، دار الفكر، عمّان، ط1، 1403هـ - 1983م، ج1، ص:61.

[4]- الربيعي بن سلامة: الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص:11.

المبحث الرابع:بين الحضارة والمدنية والثقافة:

نظرا لاختلاط المصطلحات وتداخل المفاهيم عن كثير من المفكرين حول معنى الحضارة والمدنية والثقافة أردنا أن نورد هذا العنصر بغرض توضيح الفروق ولو بشكل موجز.

تشمل **الحضارة** كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشري، وغالبا ما يحدّدها سلوك الإنسان وطريقة معيشته وتفاعله مع بيئته.وتختلف كلّ حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكلّ حضارة سواء أكانت قديمة أم حديثة مظاهر مميزة، فالحضارة تشمل كل ما يتعلق بالنظم الاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية، فهي تضمّ جميع نواحي الحياة من مظاهر البداوة إلى حياة القرية والمدينة، وتطور هذه الحياة ونموّها وازدهارها.[1]

المَدَنِية مشتقة من المدينة وهي تجمع بيوت يزيد عددها على عدد بيوت القرية، ومدن فلان مدونا أتى المدينة وبناها، وتمدّن تخلق بأخلاق أهل المدن، فالمدينة تدل على مرتبة سامية وتطور راق، حيث تتجمع ظواهر وخصائص وكفاءات في المدن قلّما توجد في حياة القرية، وفي المدينة تبدو مظاهر التقدم العلمي والفني والفكري والأدبي والتقني والآلي وغيرها.[2]

[1] عصفور محمد أبو المحاسن: معالم حضارات الشرق الأدنى والقديم، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1987، ص:03.

[2]- حاطوم نور الدين وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، مطبعة العروبة، دمشق، 1964، ص:06.

أمّا **الثقافة** فهي من كلمة ثَقَفَ فلان:صار حاذقا فطنا، والثقافة تعني العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيها، وهذا المعنى قصده "فولتير" عندما تحدث عن حالة صقل العقل والذوق والفكر، وعندما تحدث عن المعارف الفنية والعلمية والفلسفية القابلة للتعلم.[1]

وقد أورد الباحث "حسن جبر" بعض الفروق لمجموعة من الباحثين في حديثه عن مسألة الحضارة والمدنية فقال: «... وحاول الباحثون أن يفرقوا بين مسألة الحضارة والمدنية فقالوا:

❖ لكل مجتمع حضارته التي تتمثل في قيمه العليا، والتي هي غاياته، وأمّا المدنية فهي وسائله وتطبيقاته في واقع الحياة.

❖ الحضارة هي النشاط الاجتماعي الذي يرتبط بالجانب الروحي والعاطفي من الإنسان ولا يسهل اقتباسه وانتقاله من مجتمع إلى آخر، والمدنية هي النشاط الاجتماعي الذي يرتبط بالجانب العقلي والمادي من الإنسان ويسهل اقتباسه وانتقاله من بيئة إلى أخرى.

❖ الحضارة طفرات تاريخية، والمدنية تطور يسير في خط صاعد».[2]

ويورد الباحث رأيه في هذه المسألة فيقول: « إنّ المدنية طور من أطوار الحضارة ونمط من أنماط النشاط الإنساني تعتمد على البحث العلمي وتتطور بتطوره وتتسم بالإتقان والكثرة وغلبة الطابع المادي».[3]

---

[1]- سلامة صالح النعيمات: الحضارة العربية الإسلامية، الشركة العربية المتحدة للتسويق، القاهرة، 2009، ص:08.

[2]- حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية، ص:14.

[3]- المرجع نفسه، ص:14.

كما أنّ الباحث قد عرض لمجموعة من التعريفات المختلفة للثقافة وخَلُص إلى أنّها: « تعني كلّ ما يتصل بالإنسان فكريا وأخلاقيا وبدنيا حتى تدريبه النفسي أي كلّ ما يميزه عن سائر الحيوانات.. وفي معناها المحدود أطلقت على إنتاج شعب ممّا يميزه عن سائر الشعوب ويصور أسلوب حياته الخاصة التي يتمسك بها ويحافظ على أصالتها».[1]

كما نجد الباحث "الربيعي بن سلامة" في كتابه: "الحضارة العربية الإسلامية"، قد عرض مجموعة من التعاريف حول معنى **الحضارة والمدنية والثقافة** وخلص إلى أنّ: « مفهوم كلمة "حضارة" يشتمل جانبين أو يقوم على دعامتين إحداهما مادية وهي "**المدنية**" والأخرى معنوية روحية وهي "**الثقافة**". والمدنية بهذا المعنى تكون أكثر ضرورة وأكثر التصاقا بالجنس البشري كله لأنّها تمثل سعيه من أجل الحياة وتتجسد في كل ما يحققه من منجزات مادية كالمنجزات العمرانية والتطبيقات التكنولوجية...،فهي ضرورة يشترك في الحاجة إليها جميع البشر ولذلك يمكن أن تنتقل من مجتمع إلى آخر بسهولة كما نرى في منجزات الحضارة المعاصرة، أمّا الثقافة وهي الدعامة الثانية للحضارة فتعبّر عن ذلك الجانب الذي يميز كلّ مجتمع عن غيره من بقية المجتمعات البشرية، ويعبّر عن خصوصيته التي لا تنتقل بينه وبين بقية المجتمعات بسهولة وذلك لصلتها بالكيان الوجداني للمجتمع».[2]

فالباحث في هذه المفارقة يرى أنّ الحضارة تبنى على دعامتين:

---

[1]- المرجع السابق ص:16.

[2]- الربيعي بن سلامة: الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر، ص:10.

❖ دعامة مادية يشترك في الحاجة إليها جميع أبناء الإنسانية وهي تنتقل بسهولة من مجتمع إلى آخر وهذه الدعامة هي "**المدنية**".

❖ دعامة معنوية: تمثل خصوصية كل مجتمع وهي لا تنتقل بسهولة من مجتمع إلى آخر ولا تتطور بسهولة أيضا وهذه الدعامة هي "**الثقافة**".

بعد عرضنا لماهية الحضارة في هذا المدخل، سواء على مستوى الفكر العربي، قديما وحديثا، أو على مستوى الفكر الغربي يمكننا القول:

❖ إنّ الحضارة تعني الإقامة في الحضر، في مقابل ساكن البادية وذلك من خلال التعريفات اللغوية.

❖ إنّ هناك بعض التعريفات التي تؤكد على أهمية البعدين الروحي والأخلاقي في الحضارة في مقابل الجانب المادي كما عند "شبنجلر" و"شفيتزر".

❖ إنّ ثمّة ارتباطا وثيقا بين كلّ من الثقافة والحضارة، حيث أنّ لكلّ حضارة ثقافتها الخاصة.

❖ وعليه فإنّ تعريف لفظ الحضارة ينمو في التركيز على البعدين الروحي والأخلاقي، الذي يشير إلى الحضارة في جانبيها المعنوي والثقافي، والبعد الثاني هو البعد المادي الذي يمثل طور المدنية.

الفصل الأول

أضواء على شخصية مالك بن نبي

المبحث الأول: مالك بن نبي نشأته وتكوينه

المبحث الثاني: مصادره الفكرية

المبحث الثالث: تراثه الفكري

المبحث الرابع: مكانته في أوساط المثقفين

المبحث الأول: مالك بن نبي: نشأته وتكوينه.

يُشكّل العلماء والمفكرون فئة مهمة من فئات المجتمع تعبّر عن الظروف الحضارية التي تعيشها، فالعالِم لا يستطيع الوصول إلى الحقيقة بمفرده طالما أنّ أفكاره وقيمه ومقاييسه وتجاربه هي حصيلة احتكاكه وتفاعله مع الجماعة والمجتمع: « فالفكر يتشكل عند الإنسان، ونوعية التركيب النفسي، الذي يرسم معالم الشخصية وخصائصها الكيفية، وهذه الشخصية تتبلور معالمها وطبيعة السياق التاريخي، فلا يمكن الفصل بين الفكر والشخصية، بل إنّ الشخصية هي التحليل النفسي للأفكار والمفاهيم واتجاهاتها الاجتماعية».[1]

فالمعرفة العلمية إذن هي نتاج الحياة الاجتماعية، والعالم هو ذلك الشخص الذي يحاول جمع وتصنيف وعرض البيانات العلمية بعد تدوينها في شكل نظريات وقوانين علمية يمكن استعمالها في حلّ المشكلات الاجتماعية التي يعانيها الإنسان في المجتمع.

ينطبق هذا القول على نظرية "مالك بن نبي"حول مشكلات الحضارة، فالظروف الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية، التي تزامن معها هي التي شكلت فكره وبلورت وعيه، وجعلته متميزا في طرحه لهذه المشكلات، وهو بذاته يعترف بهذه الحقيقة في قوله: « هكذا إذا استفدت بامتياز لا غنى عنه لشاهد حينما ولدت في تلك الفترة».[2]

---

[1]- زكي ميلاد: مالك بن نبي مشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، ط1، 1998، ص:37.

[2]- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، ط1، 1969، ص:15.

لقد ارتأينا في هذا الفصل أن نتعرض لحياة مالك بن نبي، وعرض مؤلفاته وإبراز مكانته في أوساط المثقفين حتى يتسنى لنا معرفة مكونات فكره، والعوامل الذاتية والموضوعية المختلفة التي ساهمت في تشكيل نظريته حول الحضارة.

كما حاولنا إتباع منهجية قائمة على التحقيب التاريخي في دراسة سيرة "مالك بن نبي"، وذلك بالتطرق لأهمّ المراحل والانعطافات الرئيسة التي ساهمت بقسط كبير في تكوين القاعدة التربوية والفكرية لشخصية "مالك بن نبي".

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم حياة "مالك بن نبي" إلى أربعة أقسام هي: مرحلة الطفولة، والمرحلة الباريسية، والمرحلة القاهرية والعودة إلى الجزائر.

❖ مرحلة الطفولة: (1905–1930م).

يعدّ "مالك بن نبي"واحدًا من أعلام النهضة الإسلامية وأبرز مفكر عربي معاصر عُني بالفكر الحضاري منذ ابن خلدون،[1] ولد مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي بقسنطينة في يناير سنة 1905م، من عائلة محافظة فقيرة،تلقّى رعاية تربوية من الوالدين الذين حرسا على رعايته وتربيته خوفا من تلوثات المستعمر مع لون العائلة الملتزمة بالتقاليد الدينية،كانت عائلته بتبسة تعيش ظروف مادية قاسية، وكانت والدته تمارس فن الخياطة لتحسن من الظروف المادية لأسرتها، في حين كان أبوه لا يمارس أيّ مهنة، تأثر "مالك بن نبي" بجدته الحاجة "زوليخة" التي تعدّ بالنسبة له مدرسة أخلاقية رسخت في ذهنه وفي نفسيته معنى الخير والإحسان،إذ يقول:

[1]- فهمي جدعان: نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، دار الشروق، الأردن، ط1، 1985م، ص:132.

«وعلى هذا انضممت إلى زمرة أطفال تبسة وفي هذا الوسط الجديد من عائلة مفرطة في الفقر أخذت أتعرف إلى جدتي لأمي وسمعت الكثير من أقاصيصها وحكاياتها التي كان محورها العمل الصالح وما يليه من ثواب وعمل السوء وما يتبعه من عقاب وكانت هذه الأقاصيص الورعة تعمل على تكويني دون أن أدري فمنها عرفت أنّ الإحسان في مرتبة عليا من الخُلق الإسلامي»،[1] فكانت قصص جدّته فعلا مدرسته الأولى التي تكوّنت فيها مداركه.

وفي ظروف عصيبة ماديا واقتصاديا تمّكن والده من الحصول على منصب "خُوجة" بالإدارة المحلية بتبسة، وكان "مالك"في هذه الفترة يدرس بالكتاب والمدرسة الابتدائية الفرنسية، إذ يقول: «وكان هذا في الواقع حظا أتاح على ما أعتقد متابعة دراستي فقد تمثل في شخص معلمتي "مدام بيل" التي أحفظ لها حتى اليوم ذكرى حانية، ففي هذا الصف وجدتني لأول مرة مع أطفال أوروبيين قد أتوا عن طريق القسم الخامس».[2]

لم يستطع"مالك"التوفيق بين الدراسة في المدرسة القرآنية والدراسة في المدرسة الابتدائية الفرنسية، ممّا جعله يتغيب عن المدرسة الأولى فكان يتعرض للعقاب ممّا زاده نفورا منها والانقطاع عنها نهائيا.

[1]- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص:19.

[2]- المصدر نفسه، ص:25.

كان"مالك بن نبي" منذ طفولته ذا شعور ديني قوي، فقد أثر فيه جدّه لأمه بعد عودته من طرابلس الغرب إثر احتلالها من طرف الاستعمار الإيطالي، هذا الجد الذي كان إلى جانب تردده على زاوية العساوة من أنصار الشيخ "صالح بن مهنا" رائد الإصلاح آنذاك.[1]

عاش"مالك بن نبي" أحداثا تاريخية هامة انعكست على شخصيته كالوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر، واندلاع الحرب العالمية الأولى، وتجزئة الخلافة العثمانية، واحتلال فلسطين من طرف الإنجليز...،وفي هذه الفترة التاريخية المتميزة نجح في شهادة الدراسة الابتدائية.

لم يكن الاستعمار يسمح لأبناء الأهالي بالتفوق في الدراسة فكان يرغمهم على ممارسة الوظائف المتوسطة لذلك لم تسمح له درجة جيّد من الدخول إلى المدارس الثانوية، فأرغم على مزاولة دراسته بتكميلية متوسطة سيدي جيليس بقسنطينة التي كانت تُعد المترشحين للانتقال إلى المدارس الرسمية.[2]

نجح "مالك" في نهاية المطاف من الدخول إلى المدرسة الرسمية سنة 1923م،وقد اعتمد على تكوين نفسه علميا ومعرفيا حيث درس الأدب العربي والأدب الفرنسي وتطرق بالبحث والدراسة إلى الحركات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي...،وكان مولعا وشديد الاهتمام بمطالعة الصحافة العربية والفرنسية...،وقد نمّت هذه المطالعات الجوانب القيميّة والأخلاقية في شخصيته،

[1]- عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب، الجزائر، ط1، 1984، ص:34.
[2]- المرجع نفسه، ص:34.

كما كانت نافذة يبصر من خلالها مدى المأساة والمرارة التي كان يعيشها العالم الإسلامي وبخاصة المجتمع الجزائري بكافة مستوياته وأصعدته.[1]

تخرّج "مالك" من المدرسة الرسمية سنة 1925م وبحث عن العمل لكنّه لم يجد، فقرر السفر إلى باريس لإيجاد عمل له ولمتابعة دراسته غير أنّه لم يتحصل على وظيفة فعاد إلى الجزائر،ووُظف في محكمة تبسة ثم عيّن في وظائف أخرى لكنّه استقال منها، مارس التجارة مع صهره وشريك ثالث إلا أنّه أصيب وشركاؤه بالإفلاس الذي اضطرهم إلى بيع الطاحونة حتى لا يقعوا فريسة الكسب غير المشروع وبالوسائل اللا مشروعة للحصول على الأرباح كما كان يفعل التجار في تلك الفترةلأنّ تكوينهم الديني يمنعهم من فعل ذلك،وفي هذه الفترة اكتسب خبرة في الميدان الثقافي وأخذت معالم شخصيته تتحدّد شيئا فشيئا.[2]

❖ المرحلة الباريسية: (1930-1956م).

قرّر"مالك بن نبي" أن يواصل دراسته في الخارج بعد أن حصل على الشهادة الثانوية من المدرسة الفرنسية بالجزائر، وفي عام 1930م سافر إلى باريس حيث سيجري مسابقة الدخول إلى معهد الدراسات الشرقية، وبحكم الصدفة وقبل أن يجري المسابقة انخرط في المنظمة المسيحية للشبان الباريسيين عضوا مُسلِمًا بها، فكان أمينا ووفيا لدينه ومعتقداته الإسلامية، يقول: « والآن بعد أربعين سنة أرى بكل وضوح أنّ الريح التي دفعتني في شهر أيلول 1930م لم تكن تدفعني لمغامرة في أفق بعيد ولا إلى مرتبة اجتماعية تحققها لي شهادة معهد الدراسات الشرقية، إنّما كانت تدفعني

[1]- زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص:41.

[2]- أحمد بناسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي، منشورات التبيين الجاحظية، الجزائر،2006م،ص:13- 14.

إلى هذا المكان الذي تكامل فيه تكوني الروحي ولابدّ من قول الحقيقة أنّ ضميري تفتح فيه إلى المشكلات التي شغلت حياتي حتى هذه الساعة».[1]

أخفق"مالك بن نبي" في مسابقة الدخول إلى معهد الدراسات الشرقية لأسباب سياسية وإيديولوجية لا علمية وبعد هذا الإقصاء دخل إلى معهد اللاسلكي وكان دخوله بمشورة صديقه المصوّر "رونيه" الذي كان عنصرا بمجموعة أصدقاء "مالك"، وهكذا فكانت الأماني الحلوة التي تراوده قد كذبتها الحقائق المرّة وقد كان أمله أن يصبح محاميا ليعود إلى تبسة والعمل قرب أسرته لكن الأقدار قذفت به إلى المعهد اللاسلكي.

كان"مالك بن نبي" عضوا نشطا في جماعة الوحدويين فكانت له الجرأة أن قدم يوما محاضرة بعنوان "لماذا نحن مسلمون" في أواخر ديسمبر 1931م وقد أثارت هذه المحاضرة جدلا كبيرا بينه وبين الانفصاليين، ويصور لنا "مالك بن نبي"وقائع هذا الصراع في قوله: « هذه صورة وجيزة للصراع المحتدم في الحي اللاتيني بين الطرفين في تلك الفترة عندما وضعت فيها أقدامي واتخذت في المعركة موقفا ضدّ الانفصاليين دون أن يخطر ببالي أنّ لموقفي هذا أيّ صلة بوضع أبي موظفا صغيرا بالجزائر».[2]

وهكذا يتحول فكر"مالك بن نبي"ويقفز قفزة نوعية من الرياضيات والكيمياء والفيزياء والميكانيكا إلى حقل العلوم الإنسانية "الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ".

[1]- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص:211.

[2]- المصدر نفسه، ص:221.

تزوّج "مالك بن نبي" عام 1931م من امرأة فرنسية أسلمت على يديه وأصبح اسمها "خديجة" وأحسّ بالاستقرار في هذا الزواج وتهيأت له القاعدة النفسية المساعدة للتركيز العلمي والتحصيل الدراسي.[1]

تعرّف "مالك بن نبي"في فرنسا على بعض الشخصيات السياسية التي تردّدت على زيارة فرنسا، ومن هذه الشخصيات التي التقى بها وتأثر منها "المهاتما غاندي" (1869-1948م) الذي زار باريس عام 1932م، كما تعرّف على شخصية "ميصالي الحاج" مؤسس حزب نجم شمال إفريقيا، وفي صيف عام 1934م فُجع بوفاة والدته قبل أن يتخرج بسنة واحدة وبعد أن أتمّ دراسته تخرّج "مالك" سنة 1935م مهندسا كهربائيا.

لقد امتنع عن الرضوخ للضغوط الاستعمارية ممّا حال دون توظيفه ودون تحقيق أحلامه في الهجرة إلى بعض البلدان الإسلامية كالحجاز التي ترسخت فيها الدعوة الوهابية، أو مصر حيث كان يطمع أن يواصل دراسته في جامعة الأزهر، كما فكر بالسفر إلى أفغانستان أو إيطاليا ولكن محاولاته هذه باءت كلها بالفشل.[2]

لقد سمحت له روحه النقدية ودراسته الاجتماعية الفلسفية والسياسية واحتكاكه بالأوساط الثقافية بالإنكباب على معرفة مشاكل العالم الإسلامي يدرسها محللا وناقدا ومنظرا،واتجه نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط به وقد أعطته ثقافته المنهجية القدرة على إبراز مشكلة العالم المتخلف واعتبرها قضية حضارية بالدرجة الأولى.

---

[1]- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986، ص:15- 16.

[2]- زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص:45.

❖ المرحلة القاهرية: (1956-1963م).

سافر "مالك" إلى مصر في هذه الفترة، وكانت القاهرة مركز جذب هام للمفكرين والمثقفين، وقلعة للدفاع عن القضايا القومية الإسلامية والدعوة إلى التحرّر من الاستعمار، وقد وجد "مالك" في القاهرة الجوّ الملائم للتغير في العالم العربي والإسلامي وبها أصدر كتبه:"تأملات في المجتمع العربي"، و"ميلاد مجتمع"، و"حديث في البناء الجديد"، وقد خصّصت له الحكومة المصرية راتبا شهريا ممّا ساعده للتفرغ وللعمل الفكري وإتقان اللغة العربية، فكان يكتب ويحاضر بها، وبمصر استقرّ ابتداء من 1956م حتى عام 1963م.[1]

وأثناء وجوده في القاهرة زار أكثر من مرة سورية ولبنان لإلقاء المحاضرات والندوات حول الإصلاح والثورة وكيفية مواجهة الاستعمار.

كان "مالك بن نبي" مستشارا المؤتمر الإسلامي بالقاهرة وفيها كانت أغنى مراحل عطائه الفكري، وفي مصر أيضا تعرف على المحامي اللبناني "عمر كامل مسقاوي".

❖ العودة إلى الجزائر: (1963-1973م).

حين وصل "مالك" إلى الجزائر سنة 1963م بعد سنوات طويلة من مرحلة الاغتراب، تولى عدّة مناصب منها: مستشار التعليم العالي، ومدير جامعة الجزائر، ومدير عام للتعليم العالي ثم استقال من منصبه سنة 1967م، ومنذ استقالته تفرغ للعمل الفكري وتنظيم الندوات الفكرية في بيته يحضرها أساتذة وطلبة الجامعة، كما حاضر في جميع أنحاء الجزائر.

---

[1]- عمر بن قينة:صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م،ص:261.

وفي عام 1972م قام بأداء فريضة الحج، وفي طريقه توقف في دمشق وألقى بها محاضرتين كان لهما وقع متميزا في نفوس الحاضرين وحملت تلك المحاضرتان عنوان: "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين" و"رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين".[1]

بعد عام واحد من عودته من أداء فريضة الحج وأثناء رحلته إلى مدينة الأغواط حيث كان يلقي بعض محاضراته هناك اشتدّ به المرض، وكان قد أصيب بسرطان في البروستات سرى إلى الدماغ عن طريق العمود الفقري، فسافر إلى باريس للعلاج فأجريت له عملية جراحية واسترد بعدها صحته نوعا ما لمدة عشرين يوما، ثم اشتدّ عليه المرض، فنصحه الطبيب المعالج بأن يعود إلى بلاه، فعادوا به إلى الجزائر وبعد ثمانية أيام توفي "مالك بن نبي" في 31 أكتوبر 1973م بعد عمر يناهز الثمانية والستين.[2]

[1]- نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي- دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، دار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1997م، ص:29.
[2]- المرجع نفسه، ص:29.

المبحث الثاني: مصادره الفكرية.

ساهمت عدّة مصادر في تشكيل وصياغة فكر "مالك بن نبي"نقف عند أهمّها:

❖ أثر الثقافة العربية والإسلامية:

سبق وأشرنا إلى التنشئة الأسرية في تشكيل شخصية "مالك بن نبي" وإذا كانت الأسرة هي النواة أو الخلية الأساسية التي ينشأ الفرد في أحضانها فإنّ المدرسة تعدّ فضاء تربويا يُسهم أيضا في صياغة الشخصية، ففي الوسط المدرسي تلقى "مالك بن نبي" تكوينا علميا وأدبيا معتبرا، حيث درس التوحيد على يد شيخه "مولود بن موهوب" والفقه والسيرة على يد الشيخ "بن العابد"، كما تلقى أيضا من الشيخ "عبد المجيد" أولى أسس الثقافة العربية.

وقد تأثر تأثرا كبيرا بالحركات الإصلاحية الإسلامية وبخاصة الدعوة الإصلاحية بالجزائر وبرائدها "عبد الحميد بن باديس"، وبالدعوة الوهابية بالحجاز وبالحركة الإصلاحية في المشرق.

يقول "مالك": « وكان آخر هذه المؤثرات كتابات عثرت عليها في مكتبة النجاح أحدهما الينابيع البعيدة والمحدّدة لاتجاهي الفكري أعني بذلك كتاب "الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق" لمحمد رضا و"رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده».[1]

[1]- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص:66.

ويعتبر "حمودة بن الساعي" المؤثر الحقيقي في شخصية "مالك بن نبي" فهو الذي أحدث في فكره تلك القفزة النوعية من دراسة العلوم البحتة إلى العلوم الإنسانية: « فابن الساعي الذي كان يكبرني لم يكن مخلصا ذكيا ومثقفا بالعربية والفرنسية فحسب بل هو شخص مثالي وقدوة».[1]

كما اطلع "مالك" على ألوان من الأدب العربي القديم كشعر امرئ القيس، والشنفرى، وعنترة والفرزدق، كما قرأ الشعر الحديث لحافظ إبراهيم، ومعروف الرصافي، وجبران خليل جبران وإيليا أبي ماضي... .[2]

❖ أثر الثقافة الغربية:

تلقّى "مالك بن نبي" عن المدرسة الفرنسية بالجزائر حب المطالعة والاستفادة من المنهج الديكارتي العقلاني،كما طالع الصحف والمجلات الغربية وخاصة الجرائد الماركسية منها: جريدة الإنسانية (L'humanité)، والكفاح الاجتماعي (Lutte Sociale).

يقول "بن نبي":«... اخترت بين قراءاتي السياسية صحيفة شيوعية الإنسانية كانت تروي أكثر ظمئي الوطني...،قرأت أيضا الكفاح الاجتماعي الذي يصدرها "فيكتور سبولمان" وكانت تأتينا إلى الجزائر بصورة متقطعة».[3]

وخلال وجوده بفرنسا استطاع "مالك" أن ينمي ويوسع تأملاته الفكرية والأدبية حيث قرأ لمشاهير الأدباء الفرنسيين أمثال "لمرتين" و"شاتويريال"،و"فيكتو هيجو"...،كما تأثر ببعض

---

[1]- المصدر السابق، ص:67.

[2]- نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ص:30.

[3]- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص:67.

الفلاسفة نذكر منهم: "نيتشه" و"كانط" و"جون ديوي"، واطلع أيضا على كتابات المستشرقين عن الإسلام مثل كتاب "أوجين يونغ": 'الإسلام بين الحوت والدب'، وكتاب هنري بيرين "محمد وشرلمان" وللفيلسوف الألماني "شبنغلر" مؤلفه الضخم 'تدهور الحضارة الغربية'،[1] وكان للمؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبي" صاحب مؤلف 'دراسات التاريخ' أثركبيرا في فكر "مالك بن نبي" وفي نظريته للحضارة حيث استمدّ منه فكرة التحدّي ودورها في نشوء الحضارات، حيث صاغها صياغة جديدة في ضوء القرآن الكريم ويتجلى ذلك في كتابه "ميلاد مجتمع"، يقول "مالك بن نبي": « والواقع أنّ القرآن قد وضع المسلم بين حدين هما: الوعد والوعيد، ومعنى ذلك أنّه قد وضعه في أنسب الظروف التي يتسنى له فيها أن يجيب على تحدّي روحي في أساسه».[2]

كما استلهم من الفيلسوف الألماني "هرمان كسرلنج" فكرة البدايات الدينية لكل الحضارات التي عرفتها الإنسانية، ويتضح ذلك في كتابه 'شروط النهضة' ونستشف إلى جانب الثقافة الغربية أثر الثقافة الشرقية في فكر "مالك بن نبي"، حيث اصطبغت مؤلفاته بترعة إنسانية وروحية نتيجة لتأثره بأفكار الأدباء والمفكرين الكبار أمثال "غاندي" وشاعر الهند "طاغور".

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4، 1987م، ص:69- 71.

[2]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1986م، ص:45.

المبحث الثالث: تراثه الفكري.

وفي الإنجاز الفكري لـــ"مالك بن نبي" أوردت "نورة خالد السعد" الآتي:[1]

المرحلة	الكتاب	تاريخ الإصدار	مكان الإصدار
مرحلة الجزائر– باريس 1930–1956م	– الظاهرة القرآنية	1946م	الجزائر
	– لبيك (رواية)	1947م	الجزائر
	– شروط النهضة	1948م	الجزائر
	– وجهة العالم الإسلامي.	1954م	باريس
مرحلة مصر 1956–1963م	– فكرة الإفريقية الأسيوية	1956م	القاهرة
	– النجدة، الشعب الجزائري يباد	1957م	القاهرة
	– مشكلة الثقافة	1959م	القاهرة
	– حديث في البناء الجديد	1960م	بيروت
	– الصراع الفكري في البلاد المستعمرة	1960م	القاهرة
	– الصعوبات علامة النموّ في المجتمع العربي	1960م	القاهرة
	– الاستعمار يلجأ إلى الاغتيال بوسائل العلم	1960م	القاهرة

[1]– نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ص:40.

مرحلة ما بعد استقلال الجزائر 1963–1973م	– فكرة كومنولث إسلامي	1960م	القاهرة
	– تأملات في المجتمع العربي	1961م	القاهرة
	– في مهب المعركة	1962م	القاهرة
	– ميلاد مجتمع.	1962م	القاهرة
	– آفاق جزائرية	1964م	الجزائر
	– مذكرات شاهد القرن (القسم الأول– الطفل)	1965م	الجزائر
	– إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث	1969م	القاهرة
	– مذكرات شاهد القرن(القسم الثاني– الطالب)	1970م	بيروت
	– بين الرشاد والتيه.	1978م	دمشق

كما ترك "مالك بن نبي "مجموعة من المؤلفات المخطوطة التي لم تطبع بعد،منها:

- خطاب مفتوح لخروتشوف وإيزنهاور.
- مجالس دمشق.
- مجالس تفكير.
- مذكرات شاهد القرن– القسم الثالث.
- العلاقات الاجتماعية وأثر الدين فيها.

- نموذج لمنهج ثوري، باللغة الفرنسية.
- المشكلة اليهودية.
- العفن، وقد كتبه في آخر حياته بالفرنسية.
- دولة مجتمع إسلامي.
- اليهودية أم النصرانية.
- دراسة حول النصرانية.[1]

نكتشف من خلال رصد مؤلفات "مالك بن نبي "والإطلاع عليها أنّ هذا المفكر كان يتصور أنّ مشكلات العالم الإسلامي مهما اختلفت وتنوعت، هي مشكلة حضارة ومشكلة ثقافة، وقد مكنّته ثقافته الواسعة بشقيها العربي الإسلامي والغربي من تشكيل نظرية شمولية في الحضارة، يقول مبارك الميلي: « وكان تعمقه في الثقافة الأوروبية سببا في تحرّره من نفوذها ومعرفته لمصادرها ومواردها، لدوافعها الخفية وبواعثها العميقة ولاسيما أنّه جمع إلى جانب الثقافة العلمية، ثقافة فلسفية واجتماعية واسعة الأرجاء، كما تدل عليه آثاره ومؤلفاته العديدة التي قرأنا ها».[2]

المبحث الرابع: مكانته في أوساط المثقفين.

لقد أثارت شخصية"مالك بن نبي" إعجاب الكثير من جهابذة الفكر في العالم العربي والإسلامي، وهذا الإعجاب والتقدير مسّ جوانب عديدة من سلوكياته ومزاجه وطرق تفكيره،

[1]- زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص:196.

[2]- محمد المبارك: مقدمة كتاب وجهة العالم الإسلامي لمالك بن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط5، 1986م،ص:09.

ومن الشهادات الحية التي تبرز الإعجاب والتقدير، شهادات مسّجلة ومكتوبة اعترف بها تلامذته وأصدقاؤه ومترجمو أعماله الفكرية وبعض المهتمين بمشكلة الحضارة.

ولن نعرض كلّ الشهادات بل سنكتفي ببعض نماذج تبرز أصالة شخصية "مالك بن نبي":

❖ الأستاذ فوزي الحسن:

« مالك إنسان مسلم بكل ما لكلمة إسلام من بعد إيماني وفكري، وكان يترجم إسلامه في سلوكه وأعماله وأقواله، وكان يقدس الثورة كفكرة، ويفهمها على أنّها إرادة تغيير هادف».[1]

ويضيف قائلا: « عندما سكنت معه في منزل واحد وجدته في حالين اثنين: إمّا عابدا وإمّا مفكرا، وكاتبا فإذا كان شبّاك عرفته مفتوحا فهو كاتب، وإذا كان مقفلا فهو عابد مسّبح، لم يكن يرتاد أماكن اللهو والتسلية، أو يمارس نوعا من الألعاب، حتى التدخين حرّمه على نفسه، كان ذا ثقافة واسعة، يجيد الحوار والرد على سائله بشكل مقنع شاف، حتى إنّه كان يستطيع تحديد اختصاص السائل العلمي لمجرد توجيهه الأسئلة حول موضوع،كان ينشر كتبه لغرض إيصال فكره، ولذلك كانت تباع بسعر زهيد ممّا يوقعها بعجز يسدّه من جيبه».[2]

❖ مصطفى السباعي*:

« الأستاذ مالك جزائري الأصل، مجاهد في سبيل القضية الجزائرية بقلمه ولسانه جهادا يعرف له فضله فيه، زعماء حركة التحرير الجزائرية منذ نشوئها... ويتميز الأستاذ"مالك بن نبي" في جميع

---

[1]- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص:20.

[2]- المرجع نفسه، ص:20.

*- مفكر وداعية إسلامي وأحد مؤسسي جماعة الإخوان المسلمين في سوريا.

مؤلفاته بعمق التفكير، ومنطقيته وواقعيته، وقوة أسلوبه في الدفاع عن الأفكار التي يتبنّاها...،وقد استطاع الأستاذ "مالك"بأسلوبه الذي تفرد به، وثقافته الغربية الواسعة مع ثقافته العربية الإسلامية، أن يوجه إليه أنظار جيل من شبابنا المثقف الذي يتوق إلى الإصلاح مع احتفاظه بقوة العقيدة،وسلامة التفكير، وبدأ يرى في الأستاذ "ابن نبي" رائده الفكري البعيد النظر القوي الإيمان، المناضل بقلمه في سبيل الله والإسلام».[1]

❖ أنور الجندي*:

« مالك بن نبي يختلف كثيرا عن الدعاة المفكرين والكتاب، فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم، وبين علم الغرب وفكره المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية».[2]

❖ عبد العزيز الخالدي:

« ابن نبي في الواقع ليس كاتبا محترفا، أو عاملا في مكتب مكبا على أشياء خامدة من الورق والكلمات، ولكنه رجل شعر في حياته الخاصة بمعنى الإنسان في صورته الخُلقية والاجتماعية».[3]

---

[1]- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص:21.

*- أديب ومفكر إسلامي مصري ولد سنة 1917م وتوفي سنة 2002م.

[2]- أسعد السحمراني:مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص:22.

[3]- عبد العزيز الخالدي: مقدمة كتاب شروط النهضة لمالك بن نبي، ص:8.

❖ المحامي عمر مسقاوي*:

« تنطلق أفكار ابن نبي لا لتضيف في المجتمع الإسلامي معرفة جديدة بالفقه، أو علما مستخلصا من تجارب الحضارة الحديثة، بل لتنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة».[1]

ويضيف أيضا: « الأستاذ مالك يطرح الإسلام كملهم لقيمنا وقادر على استعادة دور الإنسان مبرئ من ثقل الحضارة الإمبراطورية، وهو يرى أنّ الإسلام لا يُقدّم إلى العالم ككتاب وإنّما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير الإنسانية، فقد أتاحت له نشأته في الجزائر، أن يشهد يوميات الاستعمار تحمل حصيلة مئة عام قبله أو يزيد؛ وكان ذلك نقطة اتصال هامة كوّنت في فكر الأستاذ مالك تجربة نقلت قلمه من صفحة الأرقام كمهندس إلى صفحة الفكر يتعرض لمشكلات الحضارة بدلا من مشكلات الإنتاج الحضاري،لقد وجد نفسه كمثقف جزائري أمام ترتيب ضروري لرسالته في المجتمع، فلابدّ أولا من بناء الإنسان قبل بناء الآلة حتى لا نضع العربة قبل الحصان فنقع في استحالة الوصل إلى الهدف».[2]

❖ محمد المبارك عميد الشريعة في جامعة دمشق*:

« ولعلّ قراء الأستاذ مالك لا يعرفون أنّه مهندس كهربائي تخرج من كبريات المعاهد الهندسية العالمي في فرنسا، وسلخ من حياته أكثر من ثلاثين سنة عاشها في أوروبا، وكانت هذه السنين

---

*- مفكر لبناني ووزير سابق يشغل حاليا عضوية المجلس الإسلامي الشرعي بلبنان.

[1]- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا،ص:21

[2]- المرجع نفسه، ص:22.

*- مفكر وأديب سوري توفي 1981م.

الطويلة والخصبة بالنسبة إلى رجل مثقف عميق الثقافة سببا في إظهار ذاتيته...،إنّه عربي مسلم، ليس هو من المجتمع الأوروبي الذي عاش فيه بجسمه في شيء...،لقد تجمعت في قلبه ونفسه، في عاطفته وشعوره، في عقله وتفكيره، مآسي أولئك الملايين من البشر، الذين يعيشون على أرض الجزائر ضحايا لمدينة القرن العشرين، وأمثلة بارزة لانحطاط أهدافها وغاياتها».[1]

❖ محمد الميلي*:

« يستخلص ابن نبي في كتاباته...،أنّ خلاص العالم الإسلامي يتمثل في تطويع تكنيك الغرب لروح الإسلام...،وكان فكر ابن نبي مدعوا لأن يلعب دورا معتبرا بعد الاستقلال، لكنّ هذا الدور كان محدودا بفعل عاملين؛ الأول هو نظريته عن قابلية الاستعمار التي استغلها أعداؤه ضدّه عندما جعلوه نوعا من التبرير للاستعمار، الثاني هو الظرف الخاص الذي عرفته الجزائر بعد عام 1962م، والذي تغلبت فيه إغراءات التجديد... وكذلك إغراءات التقليد للغرب وأنماطه الحياتية مما صرف النظر عن هضم عصارة الحضارة الغربية والاستفادة منها إلى أقصى حد».[2]

❖ زكي ميلاد*:

«... كان مالك بن نبي مبدعا، وصاحب نظرية عميقة ومتميزة في فهم الاستعمار وتحليل معالمه الفكرية، وتشريح بنيته النفسية وقراءاته من الزاوية الحضارية».[3]

---

[1]- محمد المبارك: مقدمة كتاب وجهة العالم الإسلامي لمالك بن نبي، ص:09- 10.

*- كاتب وسفير جزائري سابق من مواليد 1929م بمدينة الأغواط.

[2]- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص:23.

*- باحث في الفكر الإسلامي والإسلاميات المعاصرة من مواليد 1965م بالمملكة العربية السعودية.

[3]- زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص:52.

❖ جودت سعيد*:

« لعله عام 1957م حين وقع في يدي كتاب (شروط النهضة) لمالك بن نبي، وكنت قد أنهيت دراستي في القاهرة، وأنا على وشك مغادرتها، وكنت على صلة بالفكر الإسلامي ابتداء من الصحاح (كتب السنة) و(ابن تيمية) وتلميذه (ابن القيم)، ثم كتب السلفية إلى (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) و(رشيد رضا)، ثم كتابات (البنا) و(المودودي) و(الندوي)، وكنت أعيش هذا كله حين قرأت كتاب (شروط النهضة)، فشعرت أنّ هذا البحث يتناول المشكلة الإسلامية بصورة لم أعهدها من قبل فيما قرأت، في الواقع لم أتمكن في أول الأمر من إدراك أبعاد الفكرة بوضوح، ولكن فهمت أني أمام نموذج جيد من البحث، وأحسست بومضات في الفهم ممّا أشعرني أني عثرت على شيء كنت أبحث عنه، ومع أنّ مالك بن نبي قلما يستشهد بالكتاب والسنة إلا أنّه إن استشهد بشيء منهما بعث وهجا جديدا، لم أعهده من قبل، وبما أني كنت، إن عثرت على شيء حسن بديع، أمسك به وأقلبه وألخصه وأرجع إليه المرة تلو المرة، صرت أعيد قراءاته وأدرسه لمن أشعر أنّه يتقبل مني وأتحدث به».[1]

❖ عبد الله دراز*:

وهو يقيم كتاب الظاهرة القرآنية: « لسنا هنا أمام مجموعة مواعظ ترمي إلى حشو الذاكرات، ولكنّنا أمام نموذج حي لنقاش جدلي تكمن أهميته الحيوية في حفز الطاقة الفكرية لكل قارئ قادر

*- مفكر إسلامي ولد بقرية بئر عجم التابعة للجولان بسوريا 1931م.

[1]- سعيد جودت: مقدمة كتاب مالك بن نبي ومشكلات الحضارة: زكي ميلاد، ص:07.

*- أديب وفقيه مصري من هيئة كبار العلماء بالأزهر توفي سنة 1958م.

على التفكير المنهجي حتى يطرح كلّ واحد بدوره مشكلة الحقيقة ويبحث بمفرده عن الموقف الذي يوقفه من هذا النقاش».[1]

❖ محمود محمد شاكر*:

« هذا المفكر الخبير قد استطاع بحسن إدراكه وبقوة بيانه وبدقة ملاحظاته أن يفتح عيوننا على الخيوط التي تنسج منها حياتنا تحت ظلام دامس قد أطلقه المستعمر يُخفي عنا مكره بنا وخداعه لنا».[2]

❖ عمار الطالبي*:

«أعتقد أنّ مالك بن نبي هو المفكر الذي استطاع أن يحلل حقا أمراضنا الاجتماعية، وأن يشخصها وأن يقترح الحلول لما له من خبرة نافذة لحياة الحضارات وموتها، ولما عانى من تجربة قاسية في المجتمع الإسلامي،وفي المجتمع الغربي، ولكن الناس لم يعرفوا أهميته وأهمية تحليلاته ولم يقرؤوه قراءة حقيقية إلى يومنا هذا، فهو يمتاز بالدقة في التحليل ليخلص إلى نتائج ذات أهمية بالغة، كما يمتاز بالأصالة في تفكيره وبالعمق في تأملاته، ويظهر ذلك في فلسفته في التاريخ والحضارة، إنّه بمثابة ابن خلدون عصرنا اليوم».[3]

---

[1]- عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص:30- 40.

*- أديب وناقد مصري توفي سنة 1997م.

[2]- ، عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي،ص:40.

*- نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين وأحد تلامذة مالك بن نبي.

[3]- زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص:60.

ومن هذه الشهادات نخلص إلى أنّ "مالك بن نبي" قد كشف عن آليات الصراع الحضاري وبنظرته المتميزة لقضايا الإنسان والدين والثقافة والنهضة...،صار فكره مجال بحث الدراسات الإنسانية، كما نخلص من هذا المدخل أنّ فكر مالك بن نبي انعكاس لسياق تاريخي واجتماعي وسياسي معين تزامن معه وتأثر به، وتحدّد من خلاله اتجاهه الفكري الذي دفعه إلى معرفة أسباب التخلف في العالم الإسلامي، والبحث عن البدائل الممكنة للخروج من هذا التخلف، فكان يسعى إلى بناء مشروع نهوضي يتمثل في النظر إلى عديد من المفاهيم والمصطلحات من خلال فلسفته الحضارية ومن خلال دراسته العميقة والدقيقة لمشكلة التحضر، كان قد أرسى لهذه المشكلة عناصر أو شروط اعتبر توفرها هو الشروع في بناء الحضارة، فما هي هذه العناصر أو الأسس التي رأى "مالك بن نبي" تحقيقها هو بداية الخروج من ظلمات التخلف والانحطاط؟.

الفصل الثاني

أسس التحضر في فكر مالك بن نبي

المبحث الأول: الإنسان

المبحث الثاني: التراب

المبحث الثالث: الوقت

المبحث الرابع: الفكرة الدينية

توطئة:

إنّ دراسة الحضارة وما يلحقها من فروع وجوانب تدخل جميعها ضمن مواضيع العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تعبّر عن أوسع العلوم مجالا وأبعدها أفقا وأكثرها غموضا وأدقها تعقيدا، ولذلك تختلف حولها الرؤى وتتعدّد حولها التعريفات والاجتهادات والتفسيرات من مدرسة لأخرى ومن مفكر لآخر عبر المكان والزمان، فلا نجد تعريفا واحدا أو تفسيرا موّحدا يلتزم به الجميع، فالاختلاف والتعدّد وارد أصلا في طبيعة هذه العلوم وهذه المواضيع،فكما اختلف الفلاسفة والمفكرون في وضع تعريف واحد للحضارة واتفقوا باختلافهم على عدّة تعاريف متنوعة كان كذلك اختلافهم وتباين أفكارهم وتناقضها حول النظريات والأسس التي تكون سببا في قيام الحضارة.

فمنهم من ذهب إلى اعتبار البيئة عنصرا هاما وأساس لا ينبغي التنازل عنه فهو شرط ضروري في قيام الحضارة.[1]

ومنهم من ذهب إلى اعتبار الدّين ركيزة أساسية في قيام أيّ حضارة، وأنصار هذا الاتجاه ليسوا بحديثي العهد فتاريخهم طويل يمتدّ منذ عهد "بوذا ولاوتسي" و"ابن خلدون" وإلى "أرنو لد تويمبي"، فأصحاب هذه النظرية يرون أنّ قيام الحضارات يبدأ من الأديان لا من غيرها.[2]

---

[1]- بن براهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون- مواقف وأفكار مشتركة-، دار مدني، طبعة 2002م، ص:62.

[2]- جورج حنا: الحقيقة الحضارية، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1958م، ص:16.

أمّا أنصار الاتجاه المادي بقيادة "كارل ماركس" فيرون بأنّ الإنتاج وما يصحَبه من تبادل للمنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كلّ نظام اجتماعي، وبالتالي قيام حضارة.[1]

إنّ هذه الأسس والنظريات المتفرقة وجدها كتلة واحدة في فكر "مالك بن نبي" الذي يرى أنّ الحضارة كتلة مركبة من عناصر، وعناصر تركيب الحضارة ليست أشياء ومنتجات حضارية بل هي ما يعرف بالعُدّة الدائمة أو العناصر الأولية،[2] التي بدونها لا يمكن أن يقوم قائم للحضارة، وقد لخّصها في معادلته الشهيرة [**حضارة = إنسان + تراب + زمن (وقت)**][3] مع ضرورة وجود الفكرة الدينية كمُفَعّل بين هذه العناصر الثلاث، إذن كيف نظر **"مالك بن نبي"** لهذه العناصر، ولماذا جعل توفرها هو أساس وشرط التحضر، وما دور كل عنصر في قيام الحضارة؟.

---

[1]- بن براهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون- مواقف وأفكار مشتركة-،ص:68.

[2]- بو بكر حيلالي: إستراتيجية البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2011م، ص:65.

[3]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:50.

المبحث الأول: الإنسان.

اعتبر "مالك بن نبي" الإنسان الحجر الأساس في عملية البناء الحضاري، فالمجتمعات الحيوانية لا تنتج حضارة فهي تتصرف وفقا لما تمليه عليها غرائزها وما تقتضيه حاجاتها البيولوجية، أمّا الإنسان فلقد كرّمه الله وفضله على سائر الكائنات الدنيوية، وكلّفه بالأمانة العُظمى يتجلّى ذلك في قوله تعالى:﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾،[1] ثم إنّ الإنسان جعله الله خليفة في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾،[2] كما أنّ الله عزّ وجلّ أناط الإنسان بعمارة الأرض، قال تعالى:﴿... أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.[3]

إنّ الإنسان بفضل عقله ووعيه وإرادته أنشأ حضارات عبر الأزمنة والدّهور، ويرى "ابن نبي" أنّ المشكلة الحضارية لا تتمثل فيما نملكه من أدوات وما بين أيدينا من إمكانيات، وإنّما تتمثل أساسا في جهازنا الاجتماعي وهو الإنسان فهو يعتبره أهمّ الأسس على الإطلاق، فهو الذي بيده مفتاح الحركة والانطلاقة الحضارية وبداخله تبدأ الحركة والتغيير قبل أن تخرج خارج ذاته لتطبق وتعمّم في محيطه المكاني وفي إطاره الزماني،« فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن

---

[1]- سورة الأحزاب، الآية: 72.

[2]- سورة البقرة، الآية: 30.

[3]- سورة الأنبياء، الآية: 105.

سكَن المجتمع والتاريخ»،[1] ويقول: « إنّ كلّ تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة».[2]

فالإنسان في نظر "مالك بن نبي" هو الكائن الحضاري الذي يُنتج الحضارة بالتغيير والحركة، وذلك لا يتأتى إلا إذا غيّر نفسه، أمّا بقية الأسس الأخرى فلا تستطيع تغيير نفسها تغييرا إراديا، فالتغيير يجب أن يكون داخليا قبل أن يكون خارجيا، وأن يكون جزئيا قبل أن يكون كليا، وأن يكون فرديا قبل أن يكون جماعيا، فلا نستطيع تغير الآخرين قبل أن نُغيّر أنفسنا «غيّر نفسك تغيّر التاريخ».[3]

فـ "ابن نبي" كان دائما يستشهد بقوله تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾،[4]

فالمشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان ثمّ بتعليمه الانخراط في الجماعة، ثم بالتنظيم فالنقد البنّاء، «لكي يتحقق التغيير في محيطنا يجب أن يتحقق أولا في أنفسنا وبذلك تتوفر شروط رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، وإلاّ فإنّ المسلم لن يستطيع إنقاذ نفسه ولا إنقاذ الآخرين، ثم إذا كان منهج الرسالة يقتضي التغيير، والتغيير يقتضي تغيير ما في النفوس أوّلا...

عندها يجب على كلّ مسلم أن يحقق بمفرده شروطا ثلاث:

– أن يعرف نفسه.

---

[1]– مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر، دمشق، ط1،1979م، ط2، 1988م، ص:129.

[2]– مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4،1988م، ص:100.

[3]– مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:32 .

[4]– سورة الرعد، الآية: 11.

– أن يعرف الآخرين وأن لا يتعالى عليهم، وأن لا يتجاهلهم.

– ويجب عليه أن يعرّف الآخرين بنفسه ولكن بالصورة المحبّبة التي أجريت عليها كل العمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كلّ رواسب القابلية للاستعمار والتخلف وأصناف التقهقر».[1]

هذا في حديثه عن الإنسان المسلم، غير أنّ "مالك بن نبي" في حديثه عن مشكلة الإنسان لم يكن يرمي إلى دراسة مشاكل إنسان مجتمع معين وإنّما أراد دراسة مشاكل الإنسان في كل مجتمع يسمو نحو التحضّر.

فمن خلال دراسته لاحظ أنّ الفرد يؤثر في المجتمع بثلاث مؤثرات:

أوّلا: بفكره؛ ثانيا: بعمله؛ ثالثا: بماله.

وحاصل البحث أنّ قضية الفرد منوطة بتوجيهه في نواحي ثلاث:

أوّلا: توجيه الثقافة؛ ثانيا: توجيه العمل؛ ثالثا: توجيه رأس المال.[2]

لأنّ حل مشكلة الإنسان هو خطوة لإطلاق فاعلية في صنع التقدم، فالإنسان الذي يعيش حالة استلاب فكري ثقافي، أو حالة تسّلط على عمله وسلوكه، أو حالة نهب وهدر لثرواته، دون أن

[1]– مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1978م،ص:58– 59.

[2]– مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:83.

يكون بمقدوره التدخل والاعتراض سيتحول إلى طاقة مشلولة، لأنّ الفكر النابع من واقعه الحضاري عطلّ آثاره في توجيه كلّ ما في مجتمعه.[1]

فالإنسان الذي يراه "مالك بن نبي" عنصرا هاما وركيزة أساسية في البعث الحضاري، ليس هو ذلك الإنسان المكوّن للنوع البشري، بل هو الإنسان الاجتماعي وجهده المُنتِج للحضارة، فالحضارة ليست منتوج فرد بل منتوجا جماعيا،إذن أول خطوة في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يُغيّر الفرد من كونه مجرد فرد عادي إلى أن يصبح شخصا وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع.[2]

فالإنسان كائن حضاري يتلوّن بلون الحضارة ويُلوّنها بلونه، فهي منه وإليه وهو مُنتجها والمستفيد منها، فهو بمثابة مرآة عاكسة للحضارة فهي تَقوى بقُوته وتضعف بضعفه، فالتاريخ دائما يبدأ بالإنسان المتكامل وينتهي كذلك بالإنسان المتحلل.[3]

لكنّ السؤال الذي أرّق بال "مالك بن نبي"هو كيف الوصول إلى الإنسان المتكامل الصانع للحضارة بفكره وجهده وماله؟ فالوصول لهذا النوع من الإنسان ليس بالأمر اليسير فإعداده وتجهيزه « أشقُ كثيرا من صنع محرك أو ترويض قرد على استخدام رباط عنق»[4] فالإنسان هو العنصر الوحيد من بين عناصر الحضارة الأكثر تشابها بينه وبين الحضارة، فهو يمرّ بنفس المراحل التي تمرّ بها، وهو الكائن المعقد الوحيد في تركيبته الاجتماعية والنفسية والثقافية والفكرية والدينية

---

[1]- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص:188.

[2]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص:28.

[3]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص:28.

[4]- المصدر نفسه، ص:33.

والتاريخية، الأمر نفسه ينطبق على الحضارة فلها عالمها النفسي والفكري وعالمها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والديني... .

فالإنسان يبقى أكثر عناصر الحضارة تلاحما بالحضارة إن لم نقل هو الحضارة، وعموما سيبقى دائما هو العنصر الأول في بناء الحضارة وتأسيسها،[1] لأنّه بكل بساطة هو أكثر بقية العناصر الحضارية وأوحدها تحركا وإبداعا وتحدّيا، بينما العنصران الآخران يمتازان بالرّتابة والجمود وعدم الحركة الإرادية، فهو قادر على تعويض ضعف أو قلة أو فقر العنصرين الآخرين بجهده وتأثيره وتحديه لوسطه الحضاري بثلاث مؤثرات رئيسية هي الفكر والعمل والمال.[2]

فالإنسان عند "مالك بن نبي" هو واحد بطبعه متعدّد بتعدّد أوضاعه التي يعيش فيها، ويختلف باختلاف ظروفه السياسية والاقتصادية والتاريخية والاجتماعية والثقافية، فالإنسان الذي يعيش في أوروبا يختلف عن الإنسان الذي يعيش في العالم الإسلامي بسبب اختلاف وضعيهما السياسي والتاريخي، فالأول من بلاد مُسْتَعْمِرَة والثاني من بلاد مُسْتَعْمَرَة، فالإنسان الأوروبي يعاني من حركة بناء، والإنسان المسلم يعاني من حركة ركود.[3]

وفي حديثه عن إنسان العالَم المتخلف يشير إلى أنّه قد بات من الواجب تحرير ذات الإنسان من الاستسلام أمام الغزو الاستعماري وذلك بأن تتدرّب هذه الذات على استخدام الوسائل والقدرات المتوفرة، حتى تُحصّن وجودها من استهداف المستعمر لها والذي ينوي إفقادها الفاعلية

---

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:73.

[2]- المصدر نفسه، ص:77.

[3]- المصدر نفسه، ص:75.

وروح التقدم والطموح، وبذلك تنجح خطته بكل تقنياتها، ويصاب الإنسان المغلوب المستضعف بمرض قاتل هو القابلية للاستعمار، وبذلك يكون السبيل « لكي نتحرّر من أثر هو الاستعمار يجب أن نتحرّر من سببه وهو القابلية للاستعمار».[1]

ومنه فالاستعمار نتيجة وليس سببا، بعكس ما طرحه البعض في تفسير مشكلة التخلف في العالم الإسلامي على أساس أنّ الاستعمار هو السبب الأول والأصل والأساس، ويؤرخون لمرحلة التخلف في الأمة الإسلامية مع بدايات الغزو الاستعماري، وحركة الاستشراق هي التي عبّدت الطريق لنفوذ الاستعمار ونجاحه في السيطرة.[2]

ويرى "مالك بن نبي" أنّ طريق الخروج من ظلمات التخلف والركود هو الاهتمام بالفرد وتغيير الذات لأنّ تغيير الذات هو أساس الإصلاح، وتبدأ ثورة التغيير الفعلية حين النجاح في تحرير الإنسان من عُقَدِ النقص والانبهار بمظاهرها عند الأوروبيين، كما يجب أن نقتلع ونصفي القابلية للاستعمار من عالمه الداخلي حتى تنطلق طاقاته لتصفيته من عالمه الخارجي، يقول:« إنّ هذه الملاحظة تُسجل خطأ السياسات التي اتبعها العالم الإسلامي في الصميم، فقد اتجهّت في كفاحها إلى المُستعمِر دون أن تلتفت إلى الفرد الذي تسخره للقضاء على الاستعمار».[3]

فالعالم المتخلف الذي عانى من الاستعمار لا يزال يهتمّ بمشكلة الاستعمار في حين أهمل مشكل الإنسان وهو القابلية للاستعمار ناسيا أنّ ضربات القابلية للاستعمار أخطر من الاستعمار نفسه.

---

[1]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص:83.

[2]- زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص:89.

[3]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص:84.

فمن خلال هذا المبحث يمكن القول إنّ من أسس النهوض الحضاري في فكر "مالك بن نبي" هو الاهتمام بمشكلة الإنسان في أساسها وذلك بتوجيه ثقافته وتصفية العادات والتقاليد الميتة في نفسيته وتنمية روح الإبداع لديه.

فالتنمية في نظره لا تحتاج إلى مواعظ، وإنّما إلى الفعّالية، والعمل المتراكم وقد عبّر عن هذه المعاني في كتابه "شروط النهضة"، حيث يُمجد الإنسان المتفوق والمؤمن القوي، ويشدّد على أن تكون صورة الضعيف الهامشي صورة تُزعج ضمائرنا لأنّ الضعيف لن يحقق التنمية والحضارة.

فالإنسان باعتباره أحد أسس التحضر لا يكون كذلك إلاّ إذا احتلّ مكانه في المجتمع وقام بدوره،ككائن اجتماعي يقوم بوظيفة ويؤدي رسالة.

المبحث الثاني: التراب.

لقد تطرّق "مالك بن نبي" إلى عنصر التراب وجعله أساس من أسس التحضر وأحد العناصر الثلاثة التي تُكوّن الحضارة- إذا ما توفر المركب الديني طبعا- والتراب هنا لا يقصد به التراب المنظور له من حيث خصائصه الطبيعية، فهذا له علاقة بالعلوم الأخرى وليس له علاقة بعلوم الحضارة، وفي هذا يقول: « ونحن حينما نتكلم عن التراب، لا نبحث في خصائصه وطبيعته... ولكنّنا نتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمّة مرتفعة وحضاراتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث

تكون الأمّة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط»،[1] وللتراب أهمية إذ به ترتبط الثروة النباتية والثروة الحيوانية وبالتالي حياة الإنسان، لذلك يجب صيانته من غوائل الدهر مثل الانجراف وزحف الرمال.[2]

إنّ التراب عند "مالك بن نبي" هو المجال الحيوي ويعني به ما فوق التراب وما تحته، لكن السؤال المطروح هو كيف نتعامل مع ذلك المجال الحيوي ونُكيّفُه ونستغله حسب أهدافنا وحاجاتنا، فالبناء الحضاري لا يحتاج فقط لمكان نُقيم عليه بناء حضارتنا ليحتضنها، فالتراب بالنسبة "لمالك" هو مَورد وثروة حضارية، وكيفية استغلاله هو العامل الحاسم في بناء الحضارة، فالتربة لا تقاس بمساحتها ولا بعدد سكانها ولا بموقعها بقدر ما تقاس بقيمتها الحضارية المُستغَلة.

إنّ قيمة التراب الاجتماعية تظهر من قيمة مالكيه- كما سبق الذكر- وكمية ونوعية إنتاجه وهذا ما يظهر في بلدان متحضرة لها من التراب مساحات ضيقة صغيرة تقل عن غيرها عدّة أضعاف وسكانها أكبر وأكثر من سكان المساحات الواسعة، ومع ذلك فالأولى صاحبة المساحة الضيقة والعدد الكبير للسكان هي التي تموّل تلك التي تفوقها مساحة،[3] ومن هنا يظهر أنّ مشكلة التراب تخضع لمشكلة الإنسان؛ لأنّ التراب مادة جامدة لا تتحرك إلا إذا حرّكتها سواعد قوية موّجهة توجيها فنيا أو ثقافيا.

---

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:139.

[2]- عبد اللطيف عبادة : فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، عالم الأفكار، الجزائر، ط2،2007م، ص:230.

[3]- بن براهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون- مواقف وأفكار مشتركة-، ص:132.

وهذا ما تؤكّده موازنة النهضة اليابانية بالسكون الإندونيسي، فاليابان على الرُغم من ضعف وضيق ترابها (مجرد جبال صخرية وجزر) استطاعت أن تتقدم في مسيرتها الحضارية بفضل ما قام به الإنسان الياباني من تطويع عُنصر التراب أو تكييفه حسب الفوائد والمتطلبات الاجتماعية في حين ظلت إندونيسيا تغطّ في تخلفها على الرُّغم من خصوبة أراضيها وغناها بالثورات المعدنية والطبيعية والسبب يرجع هنا بالدرجة الأولى إلى موقف الإنسان نفسه من عنصر التراب وليس إلى تركيب التراب. [1]

فأهل إندونيسيا ما يزالون يُصنّفون في خانة الشعوب المتخلفة ولذلك فالأرض لا تقاس قيمتها بشساعتها أو ضيقها وإنّما تقاس بقيمة أهلها الاجتماعية، وهذا ما عَنَاهُ "مالك بن نبي" في حديثه عن قيمة التراب ودوره في البناء الحضاري كأساس من أسس التحضر.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى قيمة التراب التي هي جزء لا يتجزأ من قيمة مالِكه، ندرك تلك العلاقة الوطيدة والاعتباطية بينه وبين مالكه، فإن كان مالكه متحضرا كانت أرضه منتجة وقيمتها ثمينة وحدودها محصنة، وإن كان مالكه عاجزا كانت أرضه قفرا لا قيمة لها « فالأرض التي لا تنتج تتحول من أرض خصبة إلى فلاة ثمّ في مرحلة لاحقة تتحول إلى صحراء تؤدي حتما إلى تحول اقتصادي، فمن حياة زراعية تتحول إلى حياة رعي ومن رعي تتحول إلى لا شيء». [2]

---

[1]- شايف عكاشة:الصراع الحضاري في العالم الإسلامي- مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1988م، ص:123.

[2]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:133.

لقد وجّه "مالك بن نبي"، النظر إلى العلاقة بين الإنسان والتراب، خمولا أو نشاطا بإشارته إلى مقدار ما كان بالجزائر من أرض خضراء، زحفت عليها الصحراء، « إذ تموت الأرض الخضراء عن أهلها وتتركهم يتامى بين يدي الصحراء المقفرة»،[1] نتيجة خمول الإنسان الجزائري، وأشار إلى أنّ الزحف سيستمر ما لم يتنبّه الإنسان ويتجه إلى التراب مرة أخرى، لا ليحمي نفسه فقط، بل لينتزع من الصحراء الثروة المتاحة للإنسان الذي لا يملك في بداية حضارته إلا إرادته ومحراثه.[2]

ومن هذا كله يمكننا القول إنّ "مالك بن نبي" بهذا التحليل وبهذه الأمثلة وأخرى إنّما أراد التأكيد على أنّ التراب رقم مهم وأساس لا يمكن عزله أو التقليل من أهميته في عملية البناء الحضاري، غير أنّ الإنسان هو الذي يرى في التراب مصدر ثروة ووسيلة للنهوض، وهو الذي يرى فيه مصدر خطر يهدده، وعلى مدى صحة نظرة الإنسان للتراب تتوقف استفادته منه.

المبحث الثالث: الوقت.

لقد تناول "مالك بن نبي" عنصر الوقت وجعله ثالث أسس التحضر حيث كان مفهومه عنده غير مفهومنا نحن له، فقد نراه « هو ذلك المخلوق الصامت والعابر بنا وحولنا، والذي لا نسمع له صوتا ولا نلمس له ركنا، ولكنّنا نعيش بين أحضانه منذ اللحظات الأولى لوجودنا في هذا العالم إلى غاية لحظات رحيلنا عنه وتركه وراءنا، فالوقت هو الذي يتكون من أصغر جزيء فيه ليمتد عبر العصور والدُهور الطويلة، فحياة الشعوب والأمم والحضارات لا تُقاس إلا بمقاييسه».[3] فالزمن

---

[1]- المصدر السابق، ص:132.

[2]- مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد، تر: عمر كامل مسقاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت،1959م، ص:33.

[3]- بن براهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون- مواقف وأفكار مشتركة-، ص:135.

فضاء واسع استوعب واستغرق سائر الشعوب والأمم، فلقد رافق الإنسان منذ أن خلقه الله تعالى على وجه الأرض، فهو يفيض عنها- أي الشعوب- بالساعات والأيام والشهور، فلا يوجد شعب يمارس نشاطه خارج الزمن وإن كان مجال كلّ شعب يختلف عن مجال شعب ضمن هذا الفضاء الواسع.[1]

يقصد "مالك بن نبي" بالوقت قيمته عند الإنسان وليس الزمن المطلق، فالزمن عنده هو الذي يتمّ تكييفه اجتماعيا وإدماجه ضمن العمليات الصناعية والاقتصادية والثقافية باعتباره ركيزة تقوم عليها سائر اطّرادات هذه العمليات.[2]

إنّ الساعات التي تحدث عنها "مالك بن نبي" هي الساعات المقرونة بالعمل، فهذه الساعات هي القيمة المطلقة ولا تُسترد إذا ضاعت، « إنّ العملة الذهبية يمكن أن تضيع، وأن يجدها المرء بعد ضياعها ولكن لا تستطيع أيّ قوة في العالم أن تُحطّم دقيقة، ولا أن تستعيدها إذا مضت».[3]

وهكذا فما ضاع من زمن الانحطاط والتخلف الحضاري لا يمكن استرداده، لكن يمكن تعويضه باختصار الزمن في مشاريعنا المستقبلية، وهذا ما قام به الشعب الألماني، فقد استطاع أن يسترجع كل ما خرّبته له الحرب العالمية الثانية في وقت قصير جدا، فبعد أقلّ من عشر سنوات من انتهاء الحرب أصبحت ألمانيا تتمركز في مكانها الحضاري مسايرة في ذلك الدول المتحضرة، فقد فرضت الحكومة عام 1948م على الشعب الألماني كله نساءً وأطفالاً ورجالاً التطوع يوميا ساعتين

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:145.

[2]- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، ط1، 1991، ص:56.

[3]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:146.

يؤديها كلّ فرد زيادة على عمله اليومي بالمجّان من أجل الصالح العام فقط؛ يقول "مالك بن نبي": « واليوم وبعد عشر سنوات تقريبا نرى معرض ألمانيا يفتح أبوابه بالقاهرة في شهر آذار (مارس) 1957م فتذهلنا المعجزة، إذ ينبعث شعب من الموت والدّمار، وينشئ الصناعات الضخمة التي شهدناها»،[1] ويقول أيضا: « يمكننا أن ندرك قيمة الوقت مباشرة في عودة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لشعب لم يبق لديه من الوسائل إثر الحرب الثانية إلا العناصر الثلاثة: الإنسان، والتراب والزمن».[2]

والنهضة الإسلامية نفسها انطلقت من مبدأ تقديس الوقت ويتجلى هذا مثلا في أنّ أحد المسلمين كان يحملُ صخرتين أثناء بناء المسجد، عِوض أن يحمل صخرة واحدة، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على مدى إدراك هذا المسلم لقيمة الوقت.

إنّ إتمام هذا المشروع في وقت قصير له فعّالية أفضل من إتمام المشروع نفسه بعد ردحٍ طويل من الوقت، بل إنّ ازدهار الحضارة الإسلامية في سُرعة مُذهلة يرجع وقت ذاك إلى تقديس الوقت عند المسلمين.[3]

وإنجاز العمل في وقت قصير لا يعني مجرد السرعة في تنفيذ المشاريع، وإلاّ لكان عمل الإنسان الألماني أو عمل الإنسان المسلم القديم مجرد سباق في الفراغ وعاقبته الندامة وليس السلامة، ولقد وقعت بالفعل جُلّ المجتمعات المتخلفة في دوّامة من السباق، فإندونيسيا مثلا سارعت في اقتباس

[1]- المصدر السابق، ص:148.

[2]- المصدر نفسه، ص:148.

[3]- شايف عكاشة: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي، ص:124.

مشروع الدكتور "شاخت" وعمدت إلى تطبيقه في بلادها دون أن تفكر أو تتأنى في دراسته، ممّا جعل مفعول هذا المشروع يظل سلبيا مع أنّه كان إيجابيا في ألمانيا، فقد استعادت هذه الأخيرة في بناء اقتصادها في زمن قصير بفضل مشروع "شاخت" في حين عجزت إندونيسيا بمساعدة المشروع نفسه عن تنمية اقتصادها وتطوره على الرُّغم من الثروات الطبيعية والمعدنية التي توافرت في أراضيها، وهذا يرجع إلى أنّ مشروع "شاخت" صُمّم وفق المناخ الاجتماعي في ألمانيا وليس وفق المناخ الاجتماعي في إندونيسيا،[1] وبالتالي ينبغي أن نهتم أولاً بدراسة المجتمع الذي يُطبّق فيه أو عليه هذا المشروع أو ذاك.

فالوقت عند "ابن نبي" ثروة ثمينة قد تكون مستغلة وقد تكون مطلقة، وهذه الثروة بالنسبة للعالم الإسلامي الذي يعاني من أزمة حضارية هي معطلة، فالوقت في هذا العالم ينتهي إلى العدم.[2]

إنّ تأخرنا الحضاري يجعلنا نحتاج إلى المزيد من الوقت لنستدرك به ما فاتنا، وكلما استغلينا ذلك الوقت كلّما كان ثمينا، وكلّما أهملناه كان تافها رخيصا، وأصبحنا في حاجة إلى مزيد من الوقت لنعوض تأخرنا فعلينا كما يقول "ابن نبي" أنْ نُعلّم المسلم علم الزمن وهو كيفية استغلال الوقت كطاقة حيوية وأساسية، وإذا استُغل الوقت:« فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي وهذه هي الحضارة».[3]

---

[1]- مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق، ط3، 1987م،ص:91.

[2]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:140.

[3]- المصدر نفسه، ص:141.

لذا يجب على الإنسان المسلم أن يعطي قيمة أكثر للزمن ويعرف أنّ التحدّيات واقعة، وأنّه إذا لم يعمل بأسرع ما يمكن و لم يفرض نفسه بفعّالية فإنّ الحضارات الأخرى ستبتلعه وذلك لكون الصراع بين الحضارات هو صراع من أجل البقاء لا من أجل التعايش لذلك يجب أن يعمل بفعّالية دون تبديد جهوده أو تضييع وقته.[1]

ويرى "مالك بن نبي"، أنّ التربية هي الوسيلة الوحيدة التي تعلم الناس قيمة الوقت، كأنْ نُعلّم مثلا: « الطفل والمرأة والرجل؛ تخصيص نصف ساعة يوميا لأداء واجب معين، فإذا خصّص كلّ فرد هذا الجزء من يومه في تنفيذ مهمة منتظمة فسوف يكون لديه في نهاية العام، حصيلة هائلة من ساعات العمل لمصلحة الحياة، في جميع أشكالها العقلية والخُلقية والفنية، والاقتصادية والمترلية».[2]

وممّا سبق يمكننا القول إنّ استغلال الوقت له الأثر البالغ في ترشيد خطوات العمل والرّفع من فاعليته وتحسين مردوديته ممّا يعود بالنفع على الفرد والمجتمع.

فالوقت له أهمية بالغة في حياة الإنسان فهو كنز ثمين وثروة عظمى، وهو عنوان السعادة لمن حافظ عليه وأحسن استثماره من نحو، وهو رمز للشقاء لمن جهل قيمته وقعد عن استغلاله في محله من نحو ثان، وهو حركة دائبة مستمرة في نهر الحياة المتدفقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإنّ من فاته شيء منه لن يستطيع أن يسترجعه ولذا وجب على الإنسان أن يحافظ على دقائقه كمحافظته على حياته، وأن يحرص على ملئه بصالح الأعمال وأشرف المواقف وأعظم الواجبات بما يعود عليه وعلى المجتمع الإنساني بالرخاء والسعادة والتقدم، وإنّ إتلافه في البطالة والباطل واللهو

[1]- عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص:231.

[2]- مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد، ص:200.

والعبث مضيعة لعمر الإنسان وهدر لجهود الإنسانية، ولهذا كان من المأمور به شرعا العناية بالوقت وضبط الأعمال به حتى يُستفاد منه بأكبر قدر ممكن.

فمن خلال هذا جعل "مالك بن نبي" الوقت ثالث ثلاثة ركائز أساسية في بناء الحضارة الإنسانية، وأشار إلى أنّ قيمة الوقت كقيمة التراب فهي ترجع إلى قيمة الأمة فحينما تكون قيمة الأمّة مرتفعة، يكون الوقت غالي القيمة، وحيث تكون الأمّة متخلفة يكون الوقت قليل الأهمية.

المبحث الرابع: الفكرة الدينية.

إنّ العناصر الثلاثة التي تحدث عنها "مالك بن نبي" (**الإنسان، التراب، الوقت**)، والتي جعلها أساس البناء الحضاري، كانت هي نفسها مشكلة الحضارة في تصوره إذ تنحل هذه الأخيرة إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب ومشكلة الوقت، فلكي نقيم حضارة يقول "مالك بن نبي" لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات وإنّما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها،[1] فهذه الأسس كانت نِتاج عملية جدّ مركزة "الاستعصار" قام بها ليخلُص في النهاية أنّ أيّ مجتمع في نقطة إقلاعه ليس أمامه من رأسمال سوى هذه العناصر الثلاث، ومن ثمّ استطاع صياغة معادلته الحضارية الشهيرة:

حضارة = إنسان + تراب + وقت.[2]

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:68.

[2]- المصدر نفسه، ص:69.

لكن هذه المعادلة تثير عند التطبيق اعتراضا هاما هو: إذا كانت الحضارة في مجموعها ناتجا للإنسان والتراب والوقت، فلما لم يوجد هذا الناتج تلقائيا حينما توفرت هذه العناصر؟.[1]

يُجيب "مالك" عن هذا التساؤل بنقلنا إلى حقل آخر من حقول المعرفة؛ التفاعلات الكيميائية ليقيم مقارنة بين معادلته الحضارية والمعادلة الكيميائية: **أكسجين + هيدروجين = ماء**.

والماء يتشكل بوجود "مركب" أي شرارة كهربائية، ومن ثمّ يؤكد أنّه: « وبالمثل لنا الحق في أن نقول: إنّ هناك ما يطلق عليه "مُركّب الحضارة" أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، فكما يدل عليه التحليل التاريخي الآتي مفصلا، نجد أنّ هذا "المركب" موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ».[2]

فكما هو معلوم أنّ البناء الحضاري يعتمد على الأسس الثلاثة للحضارة، الإنسان والتراب والوقت، وهي عناصر ثابتة غير متغيرة لأيّ حضارة، وكل عنصر لأداء مهمته يجب أن تتوفر له شروط وخصائص معينة، وخصائص كلّ عنصر غير ثابتة، فهي تتغير بتغير الإنسان والتراب والوقت، تتغير بالزيادة والنقصان، وبالضعف والقوة، فليس وفرة الأسس فقط تنتج حضارة، ولكن ما توفر لها من الشروط والخصائص الضرورية لذلك وإلاّ تعطّلت هذه الأسس عن أداء دورها واختلفت في بلوغ هدفها.[3]

---

[1]- المصدر السابق ص:69.

[2]- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، إشراف وتقديم: عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط1،1988م،ص:42.

[3]- بن براهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون- مواقف وأفكار مشتركة-، ص:137- 138.

فإذا كان توّحد هذه الأسس الثلاثة المتناثرة، وانبعاث الحياة فيها حتى تنمو وتكون كائنا حضاريا حيا يمرّ بنفس مراحل حياة الإنسان، ويخضع لنفس مقاييس ضعفه وقوته، لا يتحقق ذلك إلاّ بتوفر الفكرة الدينية التي يعتبرها "مالك بن نبي" العنصر المازج والمركب لعناصر الحضارة، فما المقصود بالفكرة الدينية عنده؟ وما دورها في البناء الحضاري؟.

إذا كان الفرد في حاجة إلى الجماعة لتستقيم حياته والاجتماع الإنساني في حاجة إلى الأفراد ليضمن قيامه وسَيره إلى الأمام فهو في أمّس الحاجة إلى النّظام ليُحقق وجوده واستمراره، وهذا الاجتماع يظهر في صورة مجتمع يبقى في حاجة كبيرة إلى عقيدة موّحدة تنشئ العلاقات والقّيم الأخلاقية وتبث في أفراد المجتمع الشعور المشترك بحاجة الأفراد إلى بعضهم البعض...،وبوجود مبادئ وغايات لا تضمن وجودها إلا بالوسائل والسبل المناسبة، فتكون هذه العقيدة الموّحدة هي الدافع إلى النهوض بالرسالة والوظيفة داخل المجتمع، فيبدأ التاريخ، وتنطلق الحضارة؛ فالتاريخ يصنعه الإنسان والحضارة إنتاج إنساني في التاريخ وهذا الصُنع وهذا الإنتاج من فعل الإنسان بدافع من الفكرة الدينية والمبدأ الروحي.[1]

فالعقيدة إذاً تُغذي الروح مثلما يتغذى الجسم من الأشربة والأطعمة، والحضارة في قيامها تشترط عوامل روحية دينية تكون وراء كلّ تجديد في النهضة الحضارية.

فإذا كانت الفكرة الدينية تبني شبكة العلاقة الاجتماعية وتصنع حركة التطور داخل المجتمع فإنّ الحضارة تمثل هذا التطور الذي هو من فعل الفكرة الدينية في الأصل، لذا يرى "ابن نبي" أنّ للفكرة

[1]- بو بكر جيلالي: إستراتيجية البناء الحضاري عند مالك بن نبي، ص:111- 112.

الدينية دور في تركيب الحضارة، « فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها...،فالحضارة لا تظهر في أمّة من الأمم إلاّ في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شِرعة ومنهاجا، أو هي- على الأقل- تقوم أُسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنّما قُدّر للإنسان ألاّ تشرق عليه شمس الحضارة إلاّ حيث يمتدّ نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تُهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها».[1]

فـــ"مالك بن نبي من أهمّ المفكرين المسلمين الذين اهتمّوا بتحليل أهمية الفكرة الدينية ودورها في صُنع الحضارة، فهو يرى « أنّ الدين هو التعبير التاريخي والاجتماعي للتجارب المتكررة عبر القرون، وهو يعتبر في منطق الطبيعة أساس جميع التغييرات الإنسانية الكبرى...،وإذًا فالإصلاح الديني لازم باعتباره نقطة انطلاق كلّ تغيير اجتماعي».[2]

كما يُعرّف الدّين بأنّه: « مُركّب القيم الاجتماعية، وهو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره وحركته، عندما يُعبّر عن فكرة جماعية»،[3] ويتخذ عنده عدّة دلالات ومرادفات نستشفُها وهي تتردد في جلّ مؤلفاته متمثلة في: الفكرة الدينية والعقيدة الدينية، ومركب الحضارة ومؤثر الحضارة، والمبدأ الأخلاقي والإيمان والروح.

---

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:56.

[2]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص:133.

[3]- المصدر نفسه، ص:32.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مفهوم الدّين عند "مالك بن نبي" لا يعني فقط الإسلام أو المسيحية أو اليهودية، فالدّين يكون سماويا مُنّزلا من الله عزّ وجلّ على أنبيائه ورسله كما قد يتجلى في صورة مفهوم اجتماعي يستمده أفراد المجتمع من نظريات ومذاهب فلسفية واقتصادية واجتماعية حيث يشرعون في إنجازه على المدى الطويل وكمثال على ذلك نجد النظرية الوضعية والنظرية الماركسية، ومدرسة التحليل النفسي عند "فرويد"، هذا الأخير الذي حوّل مدرسته إلى عقيدة دينية تُحرّم على كلّ مفكر أو باحث ينتمي إليها من الخروج عن مبادئها ومُسلَماتها.

وفي هذا نجد الباحث "شايف عكاشة" يوضح هذا المفهوم قائلا: « هذا المبدأ قد يكون فكرة دينية مقدسة تؤلف بين أفراد المجتمع وقد يكون فكرة أو مشروعا معينا، يستحوذ على عقول أفراد المجتمع ويؤلف بينهم كما الفكرة الماركسية في المجتمع الشيوعي وفكرة "غاندي" في الهند وفكرة الصهيونية عند الصهاينة، وقد يكون هدفا مشتركا كالمطالبة بالاستقلال إذ نجد أفراد المجتمع يتضامنون ويتوّحدون حول تحقيق هذا الهدف».[1]

فالدّين في نظر "مالك بن نبي" لعب دورا كبيرا في تشكيل حضارات عديدة من خلال تأليفه بين الإنسان والتراب والوقت، فالحضارة الغربية من صُنع الفكرة الدينية المسيحية، والحضارة الإسلامية من إنتاج الدين الإسلامي، وفكرة (كوتاما) كدين شيّدت الحضارة البوذية.[2]

[1]- شايف عكاشة: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي، ص:125.

[2]- بو بكر حيلالي: إستراتيجية البناء الحضاري عند مالك بن نبي، ص:67- 69.

وعليه فإنّ ميلاد الحضارة عند "مالك بن نبي" ليس مرهونا بوفرة عناصرها لكن الزيادة على ذلك مرهون بفكرة دينية وخروجها للوجود فهذا هو الميلاد الأول للحضارة، أمّا الميلاد الثاني للحضارة فهو دخول الفكرة الدينية في أحداث التاريخ بعد دخولها الأنفس التي آمنت بها.[1]

فالفكرة الدينية دائما هي التي تقوم بالتركيب الاجتماعي في شكل قيّم أخلاقية وعادات وتقاليد وقواعد إدارية ومبادئ تشريعية وغيرها،[2] فالدّين هو مُركّب هذه القيم الاجتماعية،[3] والفكرة الدينية هي التي تخلق الشبكة الروحية التي تربط المجتمع بالإيمان بالله.[4]

إذن فأهمية الدّين والفكرة الدينية في حياة الأفراد والمجتمعات كبيرة جدا، لأنّ لها علاقة بحركة التاريخ وقيام المجتمعات وبناء الحضارات، الأمر الذي جعل "مالك بن نبي" لا يُسقط الفكرة الدينية من أسس بناء الحضارة، فهي أساس تحريك عجلة التاريخ وهي أساس تشييد صرح المجتمع المتحضر، وإذا كان الدين في نظر البعض عامل تخدير وجمود وتخلف فعنده عامل تركيب وتأليف بين عوامل وشروط ولوازم البناء الحضاري.

فتأثير الفكرة الدينية في الروح الفردية والروح الاجتماعية هو الذي يُحدِث الدوافع والأسباب في روح الفرد والمجتمع إلى النهوض، ويكون هذا الحال وراء كلّ تجديد حضاري وخلق كل حضارة وأساس حركة الإنسان في التاريخ.[5]

---

[1]- بن براهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون- مواقف وأفكار مشتركة-، ص:139.

[2]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص:60.

[3]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص:28.

[4]- بن براهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون، ص:139.

[5]- بو بكر حيلالي: إستراتيجية البناء الحضاري عند مالك بن نبي، ص:113.

إنّ ما نستخلصه مع "مالك بن نبي" ممّا سبق هو أنّ أسس التحضر وشروطه موجودة لدى كافة الأمم والشعوب لكن استثمار هذه الشروط والعناصر والتأليف بينها يحتاج إلى شرط خاص يتمثل في الفكرة الدينية، فهي وراء البناء الاجتماعي، « فسواء كُنّا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي أم كنّا بصدد المجتمعات التي تحجّرت اليوم واختفت تماما من الوجود نستطيع أن نقرّر أنّ الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي الفكرة الدينية».[1]

وعليه فإنّ أسس التحضر الأولية؛ الإنسان والتراب والوقت مع ضرورة وجود الفكرة الدينية المُركّبة، تُمثل الزاد ورأس مال الإنسان الفعّال في حركته لبناء الحضارة، فلا يمكن قيام حضارة ما في غياب المادة الأولية متمثلة في رجل بسيط يتحرك وتراب يُستغل ويُكيّف فنيّا واجتماعيا وكلّ هذا يجري في زمن محسوب ونوعي وبفكرة دينية تجمع هذه الأسس في تآلف وتوحيد ترتبط معها المبادئ بالوسائل والسبل والغايات.

فالسبيل إلى النهوض الحضاري موجود والأداة متوفرة مادامت الفكرة الدينية موجودة تُركّب بين الأسس الثلاث: الإنسان، التراب والوقت.

❖ نقد نظرية "مالك بن نبي":

لقد تعرضت نظرية الحضارة عند "مالك بن نبي" لعدّة انتقادات، وآراء متأرجحة بين الموافقة العامة والجزئية وبين المخالفة الكلية والنسبية حيث نجد بعض المفكرين قد اعتبروا أنّها قد احتوت على جانب كبير من الخطأ، ويُمثّل هذا الاتجاه النقدي "غازي التوبة" إذ يقول: « وقع "مالك بن

[1]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص:52.

نبي" في خطأ فكري نتج عن تحريك القابلية للاستعمار لذهنيته، فأعطى التراب قيمة زائدة عن حدوده، إذ وضع هذه المعادلة: **إنسان + تراب + وقت = حضارة»**

ليس من شك أنّ الإنسان هو مقياس الحضارة، لأنّه أثمن ما في الحياة، فصلاح الحضارة وفسادها يقاسان بمدى النفع أو الاضرار به، وبمدى الانسجام أو التنافر معه.

ليس من أحد أن يُنكر أنّ الحضارة تستغل التراب- الآن- أحسن استغلال، وتستفيد من الوقت أروع استفادة وقد أعطته- نتيجة ذلك- ركاما ترابيا ضخما لم تشهده أيّ حِقبة تاريخية سابقة.

وفي الوقت نفسه لم يشق الإنسان بترابه ووقته كما شقا في قرننا و لم يتأذ الإنسان بمنجزاته كما تأذى إنسان الآلة.

فاستغلال الإنسان-إذن- للتراب والوقت لا يعطي بالضرورة حضارة حسب المعادلة:

إنسان + تراب + وقت = حضارة.

فقد يكون: **إنسان + وقت + تراب = دَمار.**

والوضع الصحيح للمعادلة هو: **إنسان متوازن = حضارة**، ولّما كان المسلم حتما متوازنا- أي الإنسان الوحيد الذي يمكن أن يحقق التوازن- تصبح صورة المعادلة كالآتي:

إنسان مسلم = حضارة.[1]

[1]- غازي التوبة: الفكر الإسلامي المعاصر، دار الفكر، بيروت، ط3،1977م،ص:78.

وردًا على هذا النقد تشير الباحثة "آمنة تشيكو" في كتابها: مفهوم الحضارة عند "مالك بن نبي" و"أرنولد توينبي" إلى أنّ: « "غازي التوبة" قد أغفل نقطة مهمة في نظرية "مالك بن نبي" خلال نقده هذا وهي تدّخل الدين كمُركّب لعناصر الحضارة (الإنسان والوقت والتراب) فبدون تدّخل هذا المركب لا يمكن أن تكون حضارة...،فالدّين هو مصدر توازن الإنسان وبالتالي يمكننا أن نقول:

إنسان متوازن + تراب + وقت = حضارة ».[1]

فالمُركب الحضاري هو العنصر الذي يضمّ العناصر الأخرى ويُنسقها، وهذا المركب الحضاري هو الفكرة الدينية أو العقيدة والتي تعني الإسلام بالنسبة للعالم الإسلامي.

[1]- آمنة تشيكو: مفهوم الحضارة عند "مالك بن نبي" و"أرنولد توينبي"، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1989م، ص:141- 142.

المبحث الأول: القابلية للاستعمار

المبحث الثاني: الفعّالية

المبحث الثالث: الأفكار المطبوعة والموضوعة والأفكار الميتة والقاتلة

المبحث الرابع: الظاهرة القرآنية

حاولنا في هذا الفصل الثالث والأخير التعريف ببعض المصطلحات التي تطرّق إليها "مالك بن نبي" في مصنّفاته والتي رأيناها ذات علاقة مباشرة بقضية التحضّر، وهذه المصطلحات أو المفاهيم هي نِتاج دراسات عميقة قام بها المفكر في تحليله لأسباب تخلّف العالم الإسلامي وتشخيصه للإنسان المسلم في عصور التخلف الحضاري.

المبحث الأول: القابلية للاستعمار.

هو من أشهر المفاهيم التي أطلقها "مالك بن نبي"، وقبل أن يتناول موضوع القابلية للاستعمار في كتابه "شروط النهضة"، كتب موضوعا كتمهيد له تحت عنوان: "الاستعمار والشعوب المستعمرة"، وخلاصته أنّ الفرد الجزائري المسلم ساهم إلى حدّ بعيد في بناء الحضارة الإسلامية وذلك بفضل القيمة الطبيعية الموجودة عند كلّ فرد من أفراد البشرية، وتتمثل في استعداده الفطري لاستعمال عبقريته وترابه ووقته، وكذلك بفضل القيمة الاجتماعية التي هيّأها له المجتمع الإسلامي من وسائل الاستغلال تلك القيمة الطبيعية.

إنّ الاستعمار أدرك هذه القيمة الطبيعية، ففرنسا مثلا عملت على تحطيم القوى الطبيعية الكامنة في المواطن الجزائري وإشعاره بأنّه مجرد أهلي، وأنّه من الطبقة الثانية، وأنّه لا يتوفر على أيّة عبقرية أو مواهب، كما سدّت أمامه جميع أبواب التفتّح وحرمته من أيّة وسيلة تجعله يستغل مواهبه

أوقدراته العقلية،[1] فالفرد الجزائري لا يجد مجتمعا يساعده على تقوية جسمه وتنمية قدراته العقلية، أو يهيئ له مدرسة أو توجيها.[2]

إنّ أول ما يقوم به الاستعمار، هو تحطيم القوة الكامنة في الفرد الجزائري، وإنّه اتخذ منهجا تعسفيا حتى لا تُتاح له الفرصة لاستغلال مواهبه وعبقريته، ولكنّ "مالك بن نبي" يعتبر كل ذلك أحد العوامل الخارجية،[3] فالاستعمار: « هو مجرد بذرة صغيرة حقيرة، ما كان لها أن تنبت وتؤتى أكلها لو لم تُهيّأ لها التربة الخصبة في عقولنا ونفوسنا».[4]

فخضوعنا للاستعمار والسير وفقا لما خططه لنا والنظر إليه على أنّه (غول) لا يُقهر هو الذي يغريه لاستغلال الشعوب الضعيفة، ويُزيّن له احتلالها، وهذا ما يجب التخلّص منه ؛أي التخلص من القابلية للاستعمار ومخلّفاته.[5]

رُبّما يكون تركيز "مالك بن نبي" على هذا المصطلح، لأنّ كثيرا من المسلمين يحاولون تعليق تخلفَهم وضعفهم وقلة حيلتهم على الاستعمار، فأراد "مالك بن نبي" أن يُرجع المشكلة إلى سببها الأول، وهو القابلية للاستعمار، أي الخسائر التي ألحقناها بأنفسنا، قبل أن نتحدث عن الخسائر التي ألحقها بنا الآخرون، مطابقة لقوله تعالى: ﴿... **قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**...﴾.[6]

---

[1]- أحمد بناسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي، ص:65- 66.

[2]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:151.

[3]- أحمد بناسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي، ص:69.

[4]- مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، ط1،2005م، ص:54.

[5]- أحمد بناسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي، ص:73.

[6]- سورة آل عمران، الآية:165.

وإلاّ فكيف استطاعت شركة تجارية إنجليزية أن تحتل الهند؟ وماذا نقول عن هولندة الدولة الصغيرة التي استطاعت إخضاع الجزر الإندونيسية والبرتغالية التي قضمت أطرافا من إفريقيا وآسيا؟ ويضرب "ابن نبي" مثلا في كل كتبه على هذه الفكرة، وهي أنّ هناك دولا وشعوبا لم يدخلها الاستعمار، ولم يخرّبها كما فعل في مناطق أخرى، ولكنّها مازالت متخلفة مثل اليمن، وهناك شعوب لم تقبل الاستعمار كالشعب الإيرلندي مع الإنجليز، أو الشعب الألماني الذي لم يقبل بالهزيمة، ولا بسيطرة من انتصروا عليه بعد الحربين العالمتين الأولى والثانية.[1]

إنّ المجتمع الياباني والمجتمع الإسلامي دخلا المدرسة الغربية في الوقت نفسه تقريبا حوالي سنة 1860م ولكن الحقيقة التاريخية التي لا جدال فيها هي أنّ النتيجة اختلفت تماما، إذ نجد بعد قرن معجزة اليابان في ميدان الفن والصناعة والاقتصاد، ومن طرف آخر في المجتمع الإسلامي نجد – دون ريب– مجهودا لا يُنكر فيما نُسميه النهضة ولكنّه مجهود تَشُله الأفكار الميتة الموروثة من عهد ما بعد الموحدين.[2]

إنّ الفكرة التي يريد "مالك بن نبي" أن يوضحها هي أنّه مقابل الاستعمار الذي يتّصف بالمكر والخداع والشراسة، هناك القابلية للاستعمار التي تتصف بالدناءة والخبث والخيانة،[3] فإذن المشكلة مشكلة أخلاقية في المجتمع الإسلامي.

---

[1]– محمد العبدة: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، دار القلم، دمشق، ط1، 2006م، ص:81.

[2]– مالك بن نبي: في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، ط3،1981م، ص:134.

[3]– مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، دار الفكر، دمشق، ط1، 1978م، ص:198.

فـــ"مالك بن نبي" يعلم أنّ الشعوب الإسلامية قامت ببطولات في مقاومة الاستعمار، ولكنّها لم تخطط لنهضة بعد هذه البطولات، بسبب ضعف العلاقات الاجتماعية أو تمزقها بالأخرى، وبسبب ضُعف الأخلاق وبكلمة بسبب الضعف الحضاري.

وستبقى فكرة وكلام "مالك بن نبي" في هذا الجانب عن القابلية للاستعمار فيها شيء إيجابي، وهي أن ننظر لأنفسنا أولا، وكيف نُكوّن من هذه البطولات ومن هؤلاء الأفراد مجتمعا يُقلع باتجاه حضارة.[1]

يمكن القول إنّ "مالك بن نبي" في حديثه عن القابلية للاستعمار قد شخّص الداء الذي يتخبط فيها العالم الإسلامي من جذوره ورأى أنّ العيب فينا ويجب أن نلوم أنفسنا قبل أن نلوم المستعمر لأنّنا نحن الذين هيأنا له الطريق في عقولنا ليتسلل إلى بلادنا، وكأنّ لسان حاله يقول أَخْرِجْ فكرة الاستعمار من عقلك يخرج من بلدك.

فالقابلية للاستعمار هي في النهاية قضية تتعلق بالأفكار في مرحلة من الشلل الفكري يعبّر عنه واقع الجزائر، لكن الجزائر ليست سوى نموذج من العالم الإسلامي كله الذي يُشكل مجال دراسة لتماثل الأعراض في عالم الأفكار.

[1]- محمد العبدة: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، ص:82.

المبحث الثاني: الفعّالية.

استخدم "مالك بن نبي" مصطلح الفعّالية كثيرا في أبحاثه ودراساته للدلالة على النشاط، وكثير العمل مع إتقانه وإجادته، وذكر أنّ الفاعلية تعني حركة الإنسان في صناعة التاريخ، فإذا تحرّك الإنسان، تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن، سكن المجتمع والتاريخ.[1]

فقد نجد المسلم يحمل أفكارا صحيحة، ولكنّه لا يستطيع تطبيقها في الواقع، ويصفه "مالك" بأنّه غير فعّال يقول: « لقد افتقد الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها وبين الأشياء وأهدافها، إنّه لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا».[2]

ويذكر "ابن نبي" مفهوما آخر للفعّالية: « هي ذلك الشعور القوي في الإنسان الذي تصدر عنه مخترعاته وتصوراته، وتبليغه لرسالته وقدرته الخفية على إدراك الأشياء».[3]

والفاعلية جزء من الثقافة التي يتّصف بها الفرد والمجتمع، فالإنسان الفعّال هو القادر على استخدام الوسائل المتوافرة لديه من أجل استخراج أقصى ما يمكن من النتائج، والمجتمع الفعّال هو المجتمع الذي يَتّسم نشاطه بالحركة والحيوية، وروح المبادرة في صُنع شيء له قيمة في الحياة.[4]

لقد كان "مالك بن نبي" كثير النقد للمجتمعات العربية الإسلامية بسبب انعدام الفاعلية لديها.

---

[1]- مالك بن نبي: تأملات، ص:129.

[2]- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص:87.

[3]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:63.

[4]- بن عيسى باطاهر: الفاعلية والمشروع الحضاري- قراءة في فكر مالك بن نبي-، مجلة آفاق الثقافة والتراث، دائرة البحث العلمي والدراسات لمركز جمعة ماجد للثقافة والتراث، دبي- الإمارات المتحدة العربية-، العدد 45، أبريل 2004م، ص:41.

فقال: « ونظرةٌ إلى حولنا تكفينا لكي نلاحظ أنّ ضروب نشاطنا غالبا ما تَتّسِمُ بالشلل وانعدام الفاعلية في الجانب الخاص أو العام».[1]

وقد عدّ "مالك" الفاعلية في أعلى درجات سُلم القيّم في العالم الحديث، فيقول: « العالم الإسلامي لم يبلغ بعد درجة النشاط أو العمل الفني، الذي يُعدّ وحده كفيلا بتحديد مكانه في العالم الحديث الذي يحتلّ مبدأ الفاعلية أول درجة في سُلم القيم، وهذا المبدأ من أحوج الأمور بالنسبة إلينا».[2]

كما عدّ انعدام الفاعلية لدى الشعوب العربية والإسلامية من أهمّ أسباب تراجعها الحضاري والديني في العصر الحديث، قال: « ألسنا نشعر مثلا بأنّ ديننا، وهو أوضح من حيث الصّحة من شمس النهار، أتّه إلى حدّ ما وبسببنا نحن، وبسبب تقاعسنا وتكاسلنا ونومنا في النهار فَقَدَ بعض صلاحيته».[3]

ولكن وجود الفعّالية عند بعض الأفراد في مجتمع ما لا يعني بالضرورة اتجاه المجتمع نحو التحضّر والنهضة؛ إذ لابدّ من انتشارها في الجماعة كلها، لتتجه الجهود الجماعية كلها نحو البناء، وهذا ما أوصى به ديننا الحنيف الذي رغّب في التوكّل على الله وذمّ التواكل ودعا إلى العمل الجماعي لأنّ يد الله مع الجماعة.

---

[1]- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص:86.

[2]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص:141.

[3]- مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ص:61.

إنّ المسلم الذي يحمل القرآن؛ يجب أن يستفيد منه للتخطيط للنهوض، وإنّ التوازن الذي صاغ به القرآن شخصية المسلم من أكبر الأسباب التي تساعده على الفعّالية، كما أنّ الشريعة تحمله على التوسط بين التشدّد والتساهل،[1] وذلك لأنّ الدين الذي جاء به القرآن الكريم هو دين الوسطية، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾،[2] فلا إفراط ولا تفريط.

المبحث الثالث: الأفكار المطبوعة والموضوعة والأفكار الميّتة والقاتلة.

إنّ من بين المصطلحات التي أضافها "مالك بن نبي" والتي رأيناها ذات علاقة بقضية التحضّر هي: الأفكار المطبوعة، والأفكار الموضوعة، وأيضا الأفكار الميّتة والأفكار القاتلة أو المُميتة.

فـــ"ابن نبي" يُشبّه الأفكار بالأصوات التي تنبعث من الأسطوانة، فإذا سجّلنا مثلاً أغنية في أسطوانة مصحوبة بالموسيقى، ثم استعملنا هذه الأسطوانة، فإنّ الأصوات التي تصل إلى أسماعنا تكون صافية في تناغم لا ينفر منها السامع، وهذه هي الأصوات المطبوعة الأصلية، أو النماذج المثالية، أمّا إذا أخذت هذه الأسطوانة في التقادم والتآكل، فإنّ الأصوات تكون مصحوبة بأصوات طفيلية تشمئزُ منها مسامعنا وتنفر منها، وهذه هي الأصوات الموضوعة، أمّا إذا تآكلت الأسطوانة، ولم تعد تنبعث منها أيّة أصوات، فهذه هي الأصوات الميّتة،[3] يقول "مالك بن نبي": « فعَالَمَ الأفكار أُسطوانة لها أنغامها الأساسية ونماذجها المثالية، وهي الأفكار المطبوعة، ولها أيضا توافقاتها

[1]- محمد العبدة: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، ص:96.

[2]- سورة البقرة، الآية: 143.

[3]- أحمد بناسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي، ص:132.

الخاصة بالأفراد والأجيال، وهي الأفكار الموضوعة»،[1] إذن الأفكار المطبوعة هي الأفكار الأصلية، والأفكار الموضوعة هي المكتسبة أو المتوارثة.

إنّ "مالك بن نبي" يُطبّق حالة هذه الأسطوانة على الأفكار التي مرّت بها حضارتنا في مختلف أدوارها، ففي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانت الأفكار المطبوعة هي السائدة، وكانت ذات فعّالية وتأثير، سواء من الناحية المادية أو الناحية النفسية، فلقد أحدثت الأفكار الإسلامية تغييرا جذريا في نفوس المسلمين، ويُعطينا أمثلة رائعة عن تلك الأفكار الأصلية التي انطبعت في ذهن الرعيل الأول للإسلام، فمن هذه الأمثلة ذلك التضامن والتآخي الذي حدث بين المهاجرين والأنصار،[2] أو تلك المرأة التي اقترفت خطيئة الزّنا، وكانت الشريعة قد وضعت لمن يرتكب الزّنا أقسى العقوبات وهي عقوبة الرّجم، فهذه المرأة إذن تُدرك ما تُعرّض نفسها له باعترافها ذلك، لكنّ فعل العقوبة في جسدها بدا لها أخف وطأة من فعل الخطيئة في ضميرها، فتتجه إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ساعية ثلاث مرات، ويؤجّل الرسول صلى الله عليه وسلم الحكم ثلاث مرات كذلك، أجّله في المرة الأولى ليعطي المرأة فرصة التفكير، وفي المرة الثانية لكي تضع مولودها، وفي المرة الثالثة حتى تنتهي من إرضاع طفلها، وأخيرا طَبّق العقوبة التي ما فتئت تُطالب بها منذ أن ارتكبت خطيئتها.[3]

---

[1]- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص:68.

[2]- أحمد بناسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي، ص:124.

[3]- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص:72- 73.

المبحث الرابع: الظاهرة القرآنية.

استخدم "مالك بن نبي" مصطلح الظاهرة القرآنية، وقد ألّف كتابا بهذا العنوان، وهو من باكورة إنتاجه وقد ذكر الهدف من تأليفه:

- أنّه يُتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضج في الدين.
- وأنّه يقترح إصلاحا مناسبا للمنهج القديم في تفسير القرآن.[1]

كما ذكر الأسباب المختلفة من هذه الأهداف، يتصل بعضها بالتطور الثقافي والاجتماعي الذي حدث في العالم الإسلامي وأثّر في موقف المسلم المثقّف إزاء الإسلام بصورة عامة وبعضها يرجع إلى عنصر آخر يمكن أن نسميه تطور نظرتنا في مشكلة الإعجاز بصورة خاصة.[2]

لذلك اقترح تعديل منهج التفسير القديم، يقول: « مشكلة التفسير القرآني على أيّة حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم، كما أنّها مشكلة الأفكار الدارِجة لدى رجل الشارع، ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يُعدّل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مرّ بها العالم الإسلامي».[3]

فتعديل مناهج التفسير ضرورة ملحّة، والاستفادة من دروس التاريخ وتجاربه مسلّمة لا تناقش، لكي يفصل الحاضر عن سلبيات هذا التاريخ، ويستفاد من إيجابياته وحتى تتضمن كتب التفسير

---

[1]- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4،1987م، ص:53.

[2]- المصدر نفسه، ص:54.

[3]- المصدر نفسه، ص:59.

ثم بدأت وضعية المسلمين تسير نحو الانحدار، وهنا تركت الأفكار المطبوعة مكانها للأفكار الموضوعة: «فيقف لَحْنُ الأفكار وتتلف الأسطوانة وتمحى من نفوس كل فرد ويصبح الصمت تاما».[1]

وهنا يدخل المسلمون عالم الأفكار الميّتة، ويوضح "مالك بن نبي" مفهوم هذا المصطلح بقوله: «الفكرة الميّتة هي فكرة خذلت أصولها وانحرفت عن نموذجها المثالي، ولم يَعد لها جُذور في محيط ثقافتها الأصلي»،[2] والأفكار الميّتة هي الأفكار التي فقدت الحياة، مع ذلك فهي متجذرة في واقعنا الاجتماعي.[3]

ويُعطي "مالك" للأفكار الميّتة وصفًا آخر أكثر دقة وأشدّ خطورة، إذ يعتبرها بمثابة ميكروبات أو فيروسات داخلية، اتخذت أجسامنا وكياناتنا مقرا لها، ولها قدرة عجيبة على استدعاء وامتصاص الفيروسات الوافدة إلينا من الخارج، ويقصد بها الأفكار القاتلة التي انفصلت عن النماذج المثالية الغربية المتحضرة.[4]

فالأفكار القاتلة نستعيرها من الغرب وهي تتناقض مع مكوّنات واقعنا الاجتماعي والأفكار الميتة هي التي تجلب إلينا الأفكار القاتلة،[5] ذلك أنّ المسلمين حين استيقظوا من سُباتهم العميق، وأرادوا أن يتجاوزوا مشكلة الأفكار الميتة- بدلا من أن يستوردوا الأفكار المطبوعة التي تدعو المجتمعات

---

[1]- المصدر السابق، ص:74.

[2]- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص:153.

[3]- زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص:131.

[4]- أحمد بناسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي، ص:126.

[5]- زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص:131.

العربية إلى الجدّية في العمل واحترام الوقت، واستغلال كلّ الإمكانيات المتوفرة- بدلا من ذلك استوردوا الأفكار القاتلة من الفيروسات الخارجية أو النفايات؛ أي الجزء الميّت من تلك الحضارة، وبذلك وقع التحالف بين الأفكار الميتة والأفكار القاتلة الوافدة من الخارج، فتعطّلت مسيرة النهضة الإسلامية، وعمّت الفوضى عالمنا الإسلامي إلى يومنا هذا.[1]

وهذا كلّه لا يعني أنّه لا يجب أن نستعير أفكارا من الغرب، بل على العكس من ذلك، لكن لا مانع من الاستعارة دون الوقوع في فخ التقليد، أو السقوط والذوبان في أحضان الغير، فـــ"مالك بن نبي" لا يدعو إلى المثالية المفرطة، ولا المادية القاتلة، بل يدعو إلى التوسط الذي يُلائم الإنسان، بمعنى آخر؛ فـــ"مالك" يدعو إلى أخذ اللُّب بدل القشور، فالمتأمل في واقعنا الحالي يرى ما هو عليه المسلمين اليوم من ضعف وانحطاط وذلك بسبب إهمالهم وتفريطهم في أصولهم والإقبال بنَهَمٍ على نفايات الغرب الحاملة للفيروسات المدّمرة.

إنّ المسيحيين القدامى ابتكروا الأجراس لإسماع صوت الكنائس، والمسلمون اتخذوا الصوت والمآذن لإسماع صوت المساجد والصلوات، إنّ المسيحيين صنعوا الكراسي الخشبية للخطبة والوعظ، أمّا المسلمون فلقد اتخذوا المنابر للخطبة وإقامة الصلوات.[2]

وهكذا « يدخل الشيء المستعار بصورة طبيعية للحياة الإسلامية، فيندمج فيها لأنّه يحقق غاياتها، ويتفق مع إمكانياتها».[3]

---

[1]- أحمد بناسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي، ص:127.

[2]- المرجع نفسه، ص:128.

[3]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص:71.

فـــ"مالك بن نبي" يرى أنّ الأفكار الميتة التي خلّفها لنا مجتمع ما بعد الموحدين أشدّ فتكا وأخطر علينا من الأفكار القاتلة التي يُحاول الاستعمار ترويجها وتصديرها إلى المجتمعات الإسلامية، فهذه الأفكار الميتة التي هي نتاج إرثنا الاجتماعي تُولّد القابلية للاستعمار، في حين أنّ الأفكار المميتة المستعارة من الغرب تولد الاستعمار.[1]

ففي عصور السقوط والتخلف نرى « أنّ كلّ مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، ثم تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي أفكارا ميتة، تمثل خطرا أشدّ عليه من خطر الأفكار القاتلة لأنّ الأولى منسجمة مع عاداته، وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تكوّن ما لم نُجر عليها عملية تصفية، تكون الجراثيم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل».[2]

من خلال رأي "مالك بن نبي" في نوعية الأفكار وأثرها في النهوض الحضاري نستشعر قيمة تلك الأفكار الأصلية المبنية على العقيدة السليمة الصافية ،النقية من الشوائب المؤدية بالضرورة إلى التحضّر ما لم نحد عنها، لذلك يجب محاربة كلّ أسباب القابلية للاستعمار التي ظهرت في المجتمعات الإسلامية بالعودة إلى الدين الإسلامي وفق **المنهج الصحيح السليم الخالي من الشوائب.**

[1]- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص:146.

[2]- مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص:130.

المبحث الرابع: الظاهرة القرآنية.

استخدم "مالك بن نبي" مصطلح الظاهرة القرآنية، وقد ألّف كتابا بهذا العنوان، وهو من باكورة إنتاجه وقد ذكر الهدف من تأليفه:

- أنّه يُتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضج في الدين.
- وأنّه يقترح إصلاحا مناسبا للمنهج القديم في تفسير القرآن.[1]

كما ذكر الأسباب المختلفة من هذه الأهداف، يتصل بعضها بالتطور الثقافي والاجتماعي الذي حدث في العالم الإسلامي وأثّر في موقف المسلم المثقّف إزاء الإسلام بصورة عامة وبعضها يرجع إلى عنصر آخر يمكن أن نسميه تطور نظرتنا في مشكلة الإعجاز بصورة خاصة.[2]

لذلك اقترح تعديل منهج التفسير القديم، يقول: « مشكلة التفسير القرآني على أيّة حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم، كما أنّها مشكلة الأفكار الدارِجة لدى رجل الشارع، ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يُعدّل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مرّ بها العالم الإسلامي».[3]

فتعديل مناهج التفسير ضرورة ملحّة، والاستفادة من دروس التاريخ وتجاربه مسلّمة لا تناقش، لكي يفصل الحاضر عن سلبيات هذا التاريخ، ويستفاد من إيجابياته وحتى تتضمن كتب التفسير

---

[1]- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4،1987م، ص:53.

[2]- المصدر نفسه، ص:54.

[3]- المصدر نفسه، ص:59.

إجابات عن الكثير من التساؤلات العصرية، لأنّ ترك المسائل معلقة يدفع طالب الفهم والتفسير إلى البحث عن مُبتغاه في أيّ مصدر يَقع تحت يده.[1]

كما يحث "ابن نبي" على التعليم وطرق تبسيطه، والاهتمام الأكثر بالعلوم التطبيقية، لما لها من أهمية في تغير وجه المجتمع الإسلامي، فالقرآن الكريم يحضّ على العلم والإبداع لإعمار الأرض، وإذا ما وردت فيه بعض معطيات العلوم أو حقائق العلم، فإنّه ذكرها على سبيل المثال لا الحصر، وعلى سبيل فتح الآفاق أمام العلم، لا إقفال الأبواب بوجهه، تحت حُجّة أنّ كلّ علم هو في القرآن ويجب هجر ما سواه.

فالإسلام قد أعطى العقل دوره، وفتح للعلم طريقه، وأثاب المشتغل به، وعدّ العَالِم وريث النبي، هكذا فهم "ابن نبي" الإسلام منقذا، والمسلم ممثلا ومشاهدا والطريق إلى تحديث مناهج التفسير واللحاق بركب العلم.[2]

ويذكر "مالك بن نبي" معاناته الشخصية حول موضوع إعجاز القرآن فيقول: « وهنا تواجهنا مشكلة الإعجاز في صورتها الجديدة بالنسبة لهذا المسلم، أعني بالنسبة لأغلبية المسلمين المثقفين ثقافة أجنبية، بل بالنسبة لذوي الثقافة التقليدية في ظروفهم الثقافية والنفسية الخاصة».[3]

لذلك قام بهذه الدراسة ليثبت أنّ القرآن الكريم معجز من نواحي أخرى وليُزوّد المثقف المسلم المُحتك بالثقافة الغربية بأسس راسخة للتأمل الناضج في هذا الدين.

---

[1]- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص:106.

[2]- المرجع نفسه، ص:107.

[3]- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص:63.

يقول "مالك بن نبي": « فالمسلم اليوم فَقَدَ فطرة العربي الجاهلي، وإمكانات عالَم اللّغة في العصر العباسي، وإعجاز القرآن يجب أن يكون صفة ملازمة له عبر العصور».[1]

فإعجاز القرآن من نواحي كثيرة قد لا نعرفها إلا بالعلم، وتذكر الآية الكريمة: ﴿ **قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾،[2] فهذه الآية تحمل إشارة خفية إلى أنّ تكرار الشيء في ظروف معينة يدلّ على صحته؛ أي أنّ سوابقه في سلسلة معينة تدعم حقيقته بوصفه (ظاهرة) والظاهرة هي: « الحدث الذي يتكرّر في الظروف نفسها مع النتائج نفسها».[3]

ولهذا يمكن دراسة الرسالة المحمدية في ضوء ما سبقها من الرسالات، وهكذا درس "مالك بن نبي" ظاهرة الوحي، وظاهرة التديّن، والمقارنة مع الرسالات السابقة لإثبات النبوّة، وصدق دليل الوحي، وأنّ القرآن تنزيل من عند الله عزّ وجلّ.

إنّ ظاهرة التدّين أصيلة ومركوزة في فطرة الإنسان « فكلّما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، وجد سطورا من الفكرة الدينية»،[4] ويبحث في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم طفولته، وشبابه، وكهولته، وبدء الوحي، ثم ينتقل إلى ظاهرة الوحي، وينتقد تعريف بعض علماء الدراسات الإسلامية للوحي بأنّه "**المكاشفة أو الوحي النفسي**"؛ لأنّ الوحي معرفة قابلة للتفكير،

---

[1]- المصدر السابق، ص:67.

[2]- سورة الأحقاف، الآية: 09.

[3]- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص:64.

[4]- المصدر نفسه، ص:69.

بينما الوحي بتعريفه الشرعي ظاهرة خارجة عن نطاق الإنسان وتفكيره، والمكاشفة لا تنتج يقينا كاملا بل احتمالات، بينما الوحي يقين؛ لأنّه من الله سبحانه وتعالى.[1]

بعد عرضنا لهذه المصطلحات الحضارية تبيّن لنا أنّ "مالك بن نبي" قد أدرك أزمة الأمّة الفكرية، لذلك تطرّق لمعالجة هذه المصطلحات والمفاهيم بدراسة عميقة، كانت نِتاج خلفيته الفكرية، فنَظر إلى المرض (التخلف) وحلل سبب الداء ثم عرض الدواء، فالمُتأمل في فكره من خلال هذه المصطلحات يُدرك الخطوة التي ينبغي على الأمّة أن تخطوها في طريقها نحو التحضّر والتقدم، وذلك بالعودة إلى ذاتها أوّلا، فستقرئ تراثها الروحي والعقلي وتستلهم منه الروح والأسلوب وتستوعب أطوار تاريخها وتتحقق من عوامل رقيّها وأسباب انحطاطها فتصحّح مسارها وأن تنظر في الوقت ذاته مثل هذه النظرة الناقدة الفاحصة في تراث الأمم الأخرى ومدنياتهم بما يُخوّلها- وهي في مرحلة الإفادة والاقتباس- أن تعرف ما تأخذ وما تدع من عطاءات الخبرة الإنسانية المعاصرة، وأن تعمل على ترسيخ الفاعلية في الفرد والمجتمع وذلك بشحذ الهِمَم لبلوغ القِمَم.

[1]- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص:144.

الخاتمة

الخاتمة:

لقد أتاحت لنا هذه الجولة الموجزة مع جانب من أفكار "مالك بن نبي" أن نستخلص بعض النتائج التي نجملها في ما يلي:

- لقد شغلت "مالك بن نبي" قضية الحضارة فأدرك تماما أن مشكلة أي شعب في أصلها وفي جوهرها مشكلة حضارته.

- مشكلة التحضر هي المشكلة الوحيدة الجامعة لكل الأزمات التي نعاني منها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وعسكريا...الخ.

- جعل "ابن نبي" أسس التحضر في ثلاثة عناصر هي: الإنسان، التراب والوقت مع ضرورة وجود الفكرة الدينية كمفعّل يؤلف بين هذه العناصر.

- أولى الإنسان عناية كبيرة واختصر الحديث عن العنصرين الآخرين والسبب في نظره هو أنَ التراب والوقت لا قيمة لهما إلا بالإنسان.

- الإنسان لا يكون أساس التحضر إلا إذا احتل مكانه في المجتمع وقام بدوره، ككائن اجتماعي يقوم بوظيفة ويؤدي رسالة "الإنسان الفعّال".

- قيمة الوقت كقيمة التراب تماما ترجع إلى قيمة الأمّة فحينما تكون قيمة الأمّة مرتفعة، يكون الوقت غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلّفة يكون الوقت قليل الأهمية.

- الفكرة الدينية عند "مالك" هي الوسيلة الروحية التي يمكن أن تبني الأشخاص لأنها تخاطب الروح وهذا هو الجانب المهم الذي تقوم عليه العلاقات الاجتماعية،لأنَ هذه الأخيرة ما هي إلا ذلك الشعور الاجتماعي الموحد الذي يمكن من خلاله أن تقوم بعمل مشترك بنَاء.

- قيمة كل أمّة لا تتجسد فيما تملكه من أشياء ولكن في أفكارها لذلك دعا "مالك بن نبي" إلى صناعة أفكار جديدة، والجميع مدعوون لا إلى التفكير فقط بل إلى العمل المتقَن الذي هو سبيل التحضر.

- قوة وضعف الشعوب والأمم تقاس بقوة فكرها وضعفه، والواقع الذي نراه من حولنا ما هو إلا ترجمة لفكر معين أصبح يشكل واقعا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا...الخ.

- التحضر في فكر "ابن نبي" يقوم على التغيير في الفرد والمجتمع وعلى القضاء على أسباب التخلف والأخذ بأسباب الحضارة، كما يقوم على التوجه الديني والأخلاقي والعملي مع الاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين العلمية والحضارية.

- التغيير لا يكون بالمظاهرات والخروج على الحكام –تقليدا للغرب–وإنما يبدأ بتغيير النفس طبقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

- التغيير يكون باستثمار الطاقات البشرية أي استثمار العقول والسواعد وأيضا استثمار التراب والوقت، إذن مفتاح الحل عند الذات لا عند الآخر، وذلك بنفض غبار القابلية للاستعمار والتخلص من التبعية للغرب وأيضا التخلص من الأفكار الميتة والأفكار القاتلة.

- تعتبر أسس التحضر في فكر "مالك بن نبي" استراتيجية إصلاحية تجديدية تهدف إلى تغيير الواقع الإنساني عامة وواقع العالم المتخلف – العالم الإسلامي جزء منه- بصفة خاصة، بحيث تضع بين يديه آلية فكرية نظرية للخروج من التخلف وعلاج المرض الذي أصابه لبلوغ مستوى الحضارة.

- إن أفكار "مالك بن نبي" لا تزال حيَة وفعَالة للنهوض الحضاري وذلك لأنه شخَص الداء وأوجد الدواء، فهو ليس كبعض المفكرين الذين تذهب أفكارهم بذهابهم لأنها تعالج حالة معينة في زمن محدود، لكن هذه الأفكار الحيّة لابد من فهمها وتفعليها ودراستها بعمق وقراءتها بعقل عصرنا ومنهجيته تطلعا إلى مستقبل أرقى فهي إذن صالحة للاستثمار.

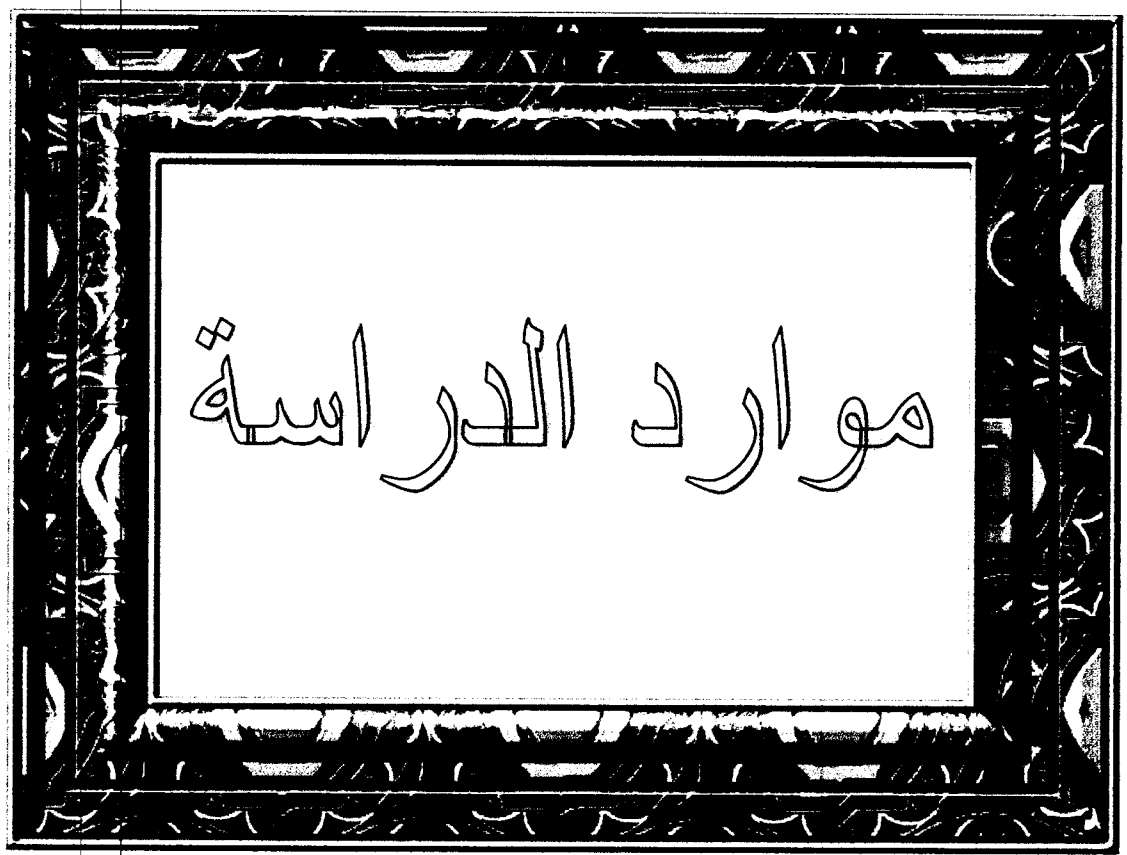
موارد الدراسة

موارد الدراسة.

- **القرآن الكريم رواية ورش عن نافع.**

أ) **المصادر:**

1. ابن خلدون: المقدمة، تح: علي عبد الرحمن وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1960م، د.ط.
2. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1410ه/1990م.
3. أبو الأعلى المودودي: الحضارة الإسلامية، أسسها ومبادئها، تر: محمد عاصم الحداد، تقديم: محمد عبد الحكيم خيال، دار الخلافة، د.ط.
4. ألبيتر شفيتزر: فلسفة الحضارة، تر: عبد الرحمن بدوي، مطبعة مصر، القاهرة، د.ط.
5. جورج باستيد: المدنية-سرابها ويقينها، تر: عادل العوا، جامعة دمشق، 1957م.
6. جورج حنا: الحقيقة الحضارية، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1958م.
7. رالف لينتون: شجرة الحضارة، ترجمة: ظفر الدين خان، دار البحوث العلمية، الكويت، ط2، 1973م.
8. ريسلر جاك: الحضارة العربية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1993م.
9. مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر،دمشق،ط4، 1987م.
10. مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، ط1، 1991م.
11. مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق، ط3، 1987م.
12. مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، دار الفكر، دمشق، ط1، 1978م.
13. مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر، دمشق، ط1- 1979م، ط2- 1988م.
14. مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد، تر: عمر كامل مسقاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1959م.

15. مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1978م.

16. مالك بن نبي: شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4، 1987م.

17. مالك بن نبي: في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، ط3، 1981م.

18. مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، ط1، 2005م.

19. مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، دار الفكر، دمشق، ط1، 1969م.

20. مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، إشراف وتقديم: عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1988م.

21. مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين،دار الفكر، دمشق، ط4، 1988م.

22. مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1986م.

23. مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، ط5، 1986م.

24. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع،ط2، 1982م.

25. وُول ديورانت: قصة الحضارة، تر: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1967م.

ب) المراجع:

1- أحمد بناسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي، منشورات التبين الجاحظية، الجزائر، 2006م.

2- أحمد شلبي: الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط6، 1989م.

3- أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986م.

4- أمنة تشيكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنو لد توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

5- بن براهيم الطيب: مالك بن نبي وابن خلدون- مواقف وافكار مشتركة-، دار مدني، طبعة 2002م.

6- بن عيسى با طاهر: الفاعلية والمشروع الحضاري- قراءة في فكر مالك بن نبي، مجلة أفاق الثقافة والتراث، دائرة البحث العلمي والدراسات لمركز جُمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، العدد 45، أفريل 2004م.

7- بو بكر جيلالي:إستراتيجية البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار قرطبة،الجزائر،ط1، 2011م.

8- حاطوم نور الدين وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، مطبعة العروبة،دمشق، 1964م.

9- حسن جبر: أسس الحضارة الإسلامية ومعالمها، دار الكتاب الحديث، الجزائر، ط2، 1999م.

10- حسين مؤنس: الحضارة، عالم المعرفة، الكويت، العدد الأول، 1978م-1398م.

11- الربيعي بن سلامة: الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م.

12- زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، ط1، 1998م.

13- سلامة صالح النعيمات: الحضارة العربية الإسلامية، الشركة العربية المتحدة للتسويق، القاهرة، 2009م.

14- شايف عكاشة: الصراع الحضاري في العالم الإسلامي- مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائرية، 1988م.

15- عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب، الجزائر، ط1، 1984م.

16- عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، عالم الأفكار، الجزائر، ط2، 2007م.

17- عصفور محمد أبو المحاسن: معالم الحضارات الشرق الأدنى والقديم، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1987م.

18- عمر بن قينة: صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.

19- غازي التوبة: الفكر الإسلامي المعاصر، دار الفكر، بيروت، ط3، 1977م.

20- فهمي جدعان: نظرية التراث ودراسات عربية أخرى، دارالشروق، الأردن، ط1، 1985م.

21- قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1977م.

22- كولن ولسن: سقوط الحضارة، تر: أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، 1982م.

23- محمد العبدة: مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، دار القلم، دمشق، ط1، 2006م.

24- محمود الخالدي: الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية، دار الفكر، عمّان، ط1، 1983م.

25- نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي- دراسة في بناء النظرية الاجتماعي-، دار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1997م.

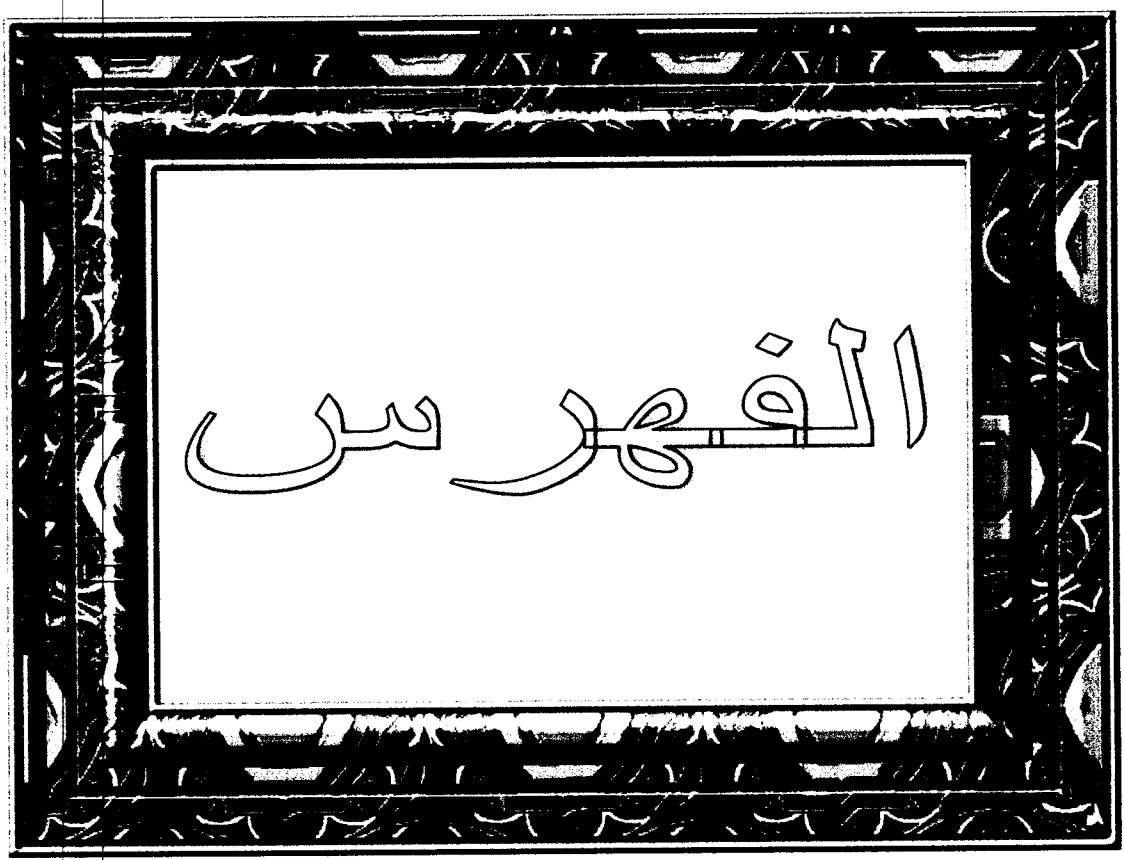
الفهرس

الفهرس

المقدمة ..... أ-ب-ج-د

المـــدخـــل: مـــاهيـــة الحـــضـــارة.

المبحث الأول: التعريف اللغوي للحضارة 02

المبحث الثاني: التعريف الاصطلاحي للحضارة 03

المبحث الثالث: آراء متباينة ومتقاربة حول الحضارة 06

المبحث الرابع: بين الحضارة والمدنية والثقافة 10

الفـــصـــل الأول: أضـــواء عـــلى شخصيـــة مالك بن نبي.

المبحث الأول: مالك بن نبي: نشأته وتكوينه 15

المبحث الثاني: مصادره الفكرية 24

المبحث الثالث: تراثه الفكري 27

المبحث الرابع: مكانته في أوساط المثقفين 29

الفـــصـــل الثانـــي: أسس التحضـــر في فكر مالك بن نبي.

المبحث الأول: الإنسان 40

المبحث الثاني: التراب 46

المبحث الثالث: الوقت 49

المبحث الرابع: الفكرة الدينية. 54

الفـــصـــل الثـــالث: مصطلحات حضارية في فكر مالك بن نبي.

المبحث الأول: القابلية للاستعمار. 64

المبحث الثاني: الفعّالية 68

المبحث الثالث: الأفكار المطبوعة والموضوعة والأفكار الميّتة والقاتلة. 70

المبحث الرابع: الظاهرة القرآنية. 75

الخاتمة 80

موارد الدراسة 84

الفهرس 89